

## سورة التوبة — سورة براءة

عدد آياتها ثلاثون ومائة ، وهي مدنية ، ولها أسماء كثيرة : منها الواضحة لما تضمنته من ذكر أسرار المنافقين وإنبائهم بما في قلوبهم من الكفر وسوء النيات ، والمدممة ، والخزبية .

وقد نزل معظمها بعد غزوة تبوك ، وهي آخر غزواته صلى الله عليه وسلم ، وقد كان الاستعداد لها وقت القيظ زمن العسرة ، وفي أثناءها ظهر من علامات نفاق المنافقين ما كان خفياً من قبل .

وأولها نزل سنة تسع بعد فتح مكة ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم علياً ليقراها على المشركين في الموسم .

روى البخارى عن البراء بن عازب قال : آخر آية نزلت « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » وآخر سورة نزلت براءة .

ووجه المناسبة بينها وبين ما قبلها — أنها كالتممة لها في معظم ما في أصول الدين وفروعه ، وفي التشريع الذي جله في أحكام القتال والاستعداد له ، وأسباب النصر فيه ، وأحكام المعاهدات والمواثيق من حفظها ونبذها عند وجود مقتضى لذلك ، وأحكام الولاية في الحرب وغيرها بين المؤمنين بعضهم مع بعض ، والكافرين بعضهم مع بعض ، وأحوال المؤمنين الصادقين والكفار والمذبذبين من المنافقين ومرضى القلوب ، فما بدى به في الأولى أتم في الثانية — وهما أمثلة على ذلك .

(١) تفصيل الكلام في قتال المشركين وأهل الكتاب في كل منهما .

(٢) ذكر في الأولى صدّ المشركين عن المسجد الحرام ، وأنهم ليسوا بأوليائه ،

وجاء في الثانية « مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ » إلى آخر الآيات

(٣) ذكرت العهود في سورة الأنفال ، وافتتحت سورة التوبة بتفصيل

الكلام فيها .

(٤) ذكر في سورة الأنفال الترغيب في إنفاق المال في سبيل الله ، وجاء ذلك بأبلغ وجه في براءة .

(٥) جاء في الأولى ذكر المنافقين والذين في قلوبهم مرض - وفصل ذلك في الثانية أتم تفصيل .

(تنبيه) لم يكتب الصحابة ولا من بعدهم البسملة في أولها ، لأنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور ، وقيل رعاية لمن كان يقول إنها مع الأنفال سورة واحدة . وقيل لأنها جاءت لرفع الأمان والابتداء بالبسملة مذكورا فيها اسم الله موصوفا بالرحمة يوجبه .

بِرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ، فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ فَهَدَّهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ مُجِيبُ الْمُتَّقِينَ (٤) .

### شرح المفردات

البراءة: من برى من الدين، إذا أسقط عنه، ومن الذنب ونحوه: إذا تركه وتباعد عنه، والمعاهدة: عقد العهد بين فريقين على شروط يلتزمونها، وكان كل فريق يضع يمينه في يمين الآخر ويوثقونها بالأيمان، ومن جراء ذلك سميت أيماننا في قوله تعالى:

(إِيْمَانَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) أى لا عهد لهم ، والسياسة فى الأرض : الانتقال والتجوال فيها ، ويراد بها هنا حرية الانتقال مع الأمان مدة أربعة أشهر لا يعرض المسلمون لهم فيها بقتال ، وقوله : غير معجزى الله ، أى لا تفوتونه بالهرب والتحصن ، والخزى : الذلل والفضيحة بما فيه عار ، والأذان : الإعلام بما ينبغى أن يعلم ، ويوم الحج الأكبر : هو يوم النحر الذى تنتهى فيه فرائض الحج ، ويجتمع فيه الحاج لإتمام مناسكهم ، ثم لم ينقصوكم شيئاً ، أى من شروط الميثاق فلم يقتلوا أحداً منكم ولم يضرروكم ، ولم يظاهروا : أى لم يعاونوا .

### المعنى الجملى

بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين بالإسلام وأقام بناء دعوته على أساس البراهين المقنعة ، ومنع الإكراه على الدخول فيه والحل على قبوله بالقوة ، مقاومه المشركون وقتلوا المؤمنين بالتعذيب والاضطهاد لصددهم عنه ، ولم يكن أحد يأمن على نفسه من القتل أو التعذيب إلا بتأمين حليف أو قريب ، فهاجر منهم عدد كثير إلى بلاد الحبشة وإلى جهات كثيرة مرة بعد أخرى ، ثم اشتد إيذاؤهم للرسول حتى اتهموا فى دار الندوة علناً على حبسه أو نفيه أو قتله ، ورجحوا آخر الأمر قتله ، فأمره الله بالهجرة إلى المدينة وصار يتبعه من أصحابه من قدر عليها ، وقد وجدوا بها أنصاراً يحبون الله ورسوله ، ويحبون من هاجر إليهم ويؤثرونهم على أنفسهم ، وكانت الحال بينهم وبين المشركين حال حرب بطبيعة الحال ومقتضى المألوف فى ذلك العصر ، وعاهد النبي صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب من اليهود والنصارى على السلم والتعاون بينهم ، فخانوا ونقضوا العهد وظاهروا المشركين عليه ، وعاهد المشركين فى الحديبية على السلم والأمان عشر سنين بشروط كانت منتهى السخاء عن قوة وعزة ، لا عن ضعف وقلة ، حباً للسلم ونشر الدعوة بالإقناع والحجة فدخلت خزاعة فى عهده صلى الله عليه وسلم كما دخلت بكر فى عهد قريش ،

ثم عدت الثانية على الأولى وأعاتها قريش بالسلاح ناقضين العهد ، فكان ذلك سبب عودة الحرب بينه وبينهم إلى أن كان فتح مكة ، وبه خضدت شوكة الشرك وذل أهله ، ولكنهم مازالوا يحاربون حيث قدروا ، ودلت التجارب أنه لا عهود لهم ولا يؤمن غدوهم في حالى القوة والضعف ، ولا يستطيع المسلمون أن يعيشوا معهم بحكم المعاهدات ويأمن كل شر الآخر مادامو على شركهم ، ولا سيما وقد سبقهم إلى نقض العهد من كانوا أجدر منهم بالوفاء وهم أهل الكتاب .

من جرّاء هذا جاءت هذه السورة بنبذ عهودهم المطلقة وإتمام عهودهم المؤقتة لمن استقام عليها ، فخاربههم النبي صلى الله عليه وسلم وتم له الغلب عليهم ومحاربة الشرك من جزيرة العرب ودانت كلها للإسلام « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ » .

## الإيضاح

( براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ) أى هذه براءة آتية من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، كما يقال : هذا كتاب من فلان إلى فلان . ونسبه إلى الله ورسوله من قبل أنه أشريع جديد شرعه الله وأمر رسوله بتنفيذه ونسب معاهدة المشركين إلى جماعة المؤمنين وإن كان الرسول هو الذى عقد العهد ، لأنه عقده بوصف كونه الإمام والقائد لهم ، وهو عقد ينفذ بمراعاتهم له وعمالهم بموجبه ، فجمهور المؤمنين هم الذين ينفذون أحكام المعاهدات ، وللقواد من أهل الحل والعقد الاجتهاد فيما لا نص فيه منها ومن أحكام الحرب والصلح ونحوها

قال البغوى : لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف ، وجعل المشركون ينفذون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره الله بنقض عهودهم ، وذلك قوله عز وجل : « وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » اه . قال الحافظ ابن كثير : اختلف المفسرون في هذه الآية اختلافاً كثيراً ، فقال قائلون : هذه الآية لذوى العهود المطلقة غير المؤقتة ، ومن

له عهد دون أربعة أشهر ، فيكفل له أربعة أشهر ، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كانت ، لقوله تعالى : « فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ » ولما سياتى في الحديث : « ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته » وهذا أحسن الأقوال وأقواها واختاره ابن جرير رحمه الله اه .

( فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ) هذا خطاب من الله للمؤمنين مبين لما يجب أن يقولوه للمشركين الذين برى الله ورسوله من عهودهم ، أى قولوا لهم : سيروا في الأرض وأنتم آمنون لا يتعرض لكم أحد من المسلمين بقتال مدة أربعة أشهر تبتدىء من عاشر ذي الحجة من سنة تسع للهجرة وهو يوم النحر الذى بلغوا فيه هذه الدعوة ، وتنتهى في عاشر شهر ربيع الآخر من سنة عشر .

والحكمة في تحديد هذه المدة أن يكون لديهم فسحة من الوقت للنظر والتفكير في عاقبة أمرهم ، والتخير بين الإسلام والاستعداد للقتال إذا هم أصروا على شركهم وعدوانهم ، وهذا منتهى ما يكون من السجاجة والرحمة والإعذار إلى أعدى أعدائه الحار بين ، حتى لا يقال إنه أخذهم على غرة .

( واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين ) أى واعلموا أنكم من تعجزوا الله ولن تفوتوه فتجدوا مهرباً من الله لسياحتكم إذا أنتم أصرتم على شرككم وعدوانكم لله ورسوله ، بل سيسلط المؤمنين عليكم ويؤيدهم بنصره الذى وعدهم به ، والعاقبة للمتقين ، فقد جرت سنة الله بخزي الكافرين منكم ومن غيركم في معاداتهم وقتالهم لرسله في الدنيا والآخرة كما جاء في مشركى مكة ومن نحا نحوهم .

« كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ، فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

( وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ) أى هذا إعلام من الله ورسوله بالبراءة من عهود المشركين وسائر خرافات

شركهم وضلالهم في وقت يسهل فيه ذلك التبليغ والإعلام ، وهو يوم الحج الأكبر يوم النحر الذي فيه تنتهى فرائض الحج ، ويجتمع الحجاج لإتمام مناسكهم وستنهم في منى .  
ثم أكد ما يجب أن يبلغوه بلا تأخير بقوله :

( فإن تبتم فهو خير لكم ) أى قولوا لهم : فإن تبتم ورجعتم عن شرككم وعن خيانتكم وغدركم بنقض العهد وقبّلتكم هدى الإسلام ، فذلك خير لكم في الدنيا والآخرة ، لأن في هدايته سعادتكم فيهما .

( وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ) أى وإن أعرضتم عن إجابة الدعوة إلى التوبة فاعلموا أنكم غير سابقيه سبحانه ولا فائتيه ، فلن تفلتوا من حكم سنه ووعده لرسله والمؤمنين بالنصر والغلب كما قال : « وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

( وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ) أى وبشر أيها الرسول الكريم من جحد رسالتك ولم يؤمن بالله وملائكته واليوم الآخر بعذاب أليم في الآخرة .  
وهذا من أبناء الغيب التي لاتعلم إلا بوحي من الله عز وجل ، واستعمال البشارة فيما يسوء ويكره ضرب من التبهيم كما لا يخفى :

( إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ) أى لاتتملوا الناكثين لليهود فوق أربعة أشهر ، إلا الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم ، فلا تجروهم مجرى الناكثين في المسارعة إلى قتالهم ، بل أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، بشرط ألا ينقصوا شيئاً من شروط الميثاق ولا يضاروكم ، ولا يعاونوا عليكم أحداً من أعدائكم ، كما عدت بنو بكر على خزاعة في غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فظاهرتهم قريش بالسلاح .

وفى ذلك إيماء إلى أن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام مادام العهد معقوداً ، وإلى أن العهد المؤقت لايجوز نقضه إلا بانتهاء وقته ، وإلى أن من شروط وجوب الوفاء به محافظة العدو المعاهد لنا على ذلك العهد بمخافيره بنصه وحقواه ، فإن نقص شيئاً منه وأخلّ بغرض من أغراضه عدّ ناقضاً له كما قال : ( ثم لم ينقصوكم شيئاً )

ويدخل في الإخلال مظاهره أحد من الأعداء على المسلمين ، لأن المقصد من المعاهدات ترك قتال كل من الفريقين المتعاهدين للآخر وحرية التعامل بينهما .

(إن الله يحب المتقين ) أى الذين يتقون نقض العهد وخفر الذم وسائر المفاسد التى تحل بالنظام وتمنع جريان العدل بين الناس .

وفى ذلك إيماء إلى أن مراعاة حقوق العهد تدخل فى حدود التقوى ، وإلى أن التسوية بين الوفى والغادر منافية لذلك وإن كان المعاهد مشركا .

وقد ورد فى تنفيذ أمر الله بهذه البراءة والأذان بها : أى التبليغ العلنى أحاديث فى الصحاح أشهرها أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل أبا بكر رضى الله عنه أميرا على الحج سنة تسع وأمره أن يبلغ المشركين الذين يحضرون الحج أنهم يمنعون منه بعد ذلك العام ، ثم أردفه بعلى كرم الله وجهه ليلعنهم عنه نبذ عهودهم المطلقة وإعطاءهم مهلة أربعة أشهر لينظروا فى أمرهم ، وأن العهود المؤقتة أجلها نهاية وقتها ، ويتلو عليهم الآيات المتضمنة لنبذ العهود وما يتعلق بها من أول سورة براءة ، وهى نحو أربعين آية .

وقد كان من عادة العرب أن العهود ونبذها إنما تكون من عاقدها أو أحد عصبتها القريبة ، وأن عليا اختص بذلك مع بقاء إمارة الحج لأبي بكر ، وكان يساعده على ذلك بعض الصحابة كأبي هريرة .

روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة قال : بعثنى أبو بكر فى تلك الحجة فى مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى : ألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ثم أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلى بن أبى طالب وأمره أن يؤذن ببراءة ، وألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ  
وَخُذُواهُمْ وَاحْضَرُواهُمْ وَأَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

وَاتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ  
 الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ  
 بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) .

## شرح المفردات

انسلاخ الأشهر : انقضاؤها والخروج منها ، يقال : سلخ فلان الشهر وانسلخ  
 منه ، قال تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ » وقال شاعرهم :  
 إذا ما سلخت الشهر أهلكت مثله كفى قاتلى سلخى الشهر وإهلالى  
 والحرم : واحدها حرام ، وهى الأشهر التى حرم الله فيها قتالهم فى الأذان والتبليغ  
 بقوله : « فَسَيُحْوَا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ » وقوله : وخذوهم ، أى بالأسر ،  
 والأخذ : الأسير ، واحصروهم : أى امنعوهم من الخروج واحبسوهم ، والمرصد :  
 الموضع الذى يرقب فيه العدو ، يقال رصدت فلانا أرصده : إذا ترقبته ، أى أقعدوا لهم  
 على كل مرصد ، واستجاره : طلب جواره ، أى حمايته وأمانه ، وقد كان من عادات  
 العرب حماية الجار والدفاع عنه حتى يسمون النصير : جارا ، وأجره : أى أمته ،  
 ومأمنه : أى مسكنه الذى يأمن فيه ، وهو دار قومه ، وقوله : لا يعلمون أى ما الإسلام  
 وما حقيقته ، فلا بد من إعطاء الأمان حتى يفهموا الحق ولا يبتغى لهم معذرة .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الأذان العام بالبراءة من عهود المشركين وسائر خرافاتهم  
 وضلالاتهم على الوجه الذى سبق تفصيله ، فتنى على ذلك بذكر ما يجب أن يفعله  
 المسلمون معهم حين انقضاء الأجل المضروب لهم والأمان الذى أعطى لهم للضرب  
 فى الأرض .

## الإيضاح

( فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ) أى فإذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرم عليكم فيها قتال المشركين ، فافعلوا معهم كل ما ترونه موافقا للمصلحة من تدابير الحرب وشؤونها لأن الحال بينكم وبينهم عادت إلى حال الحرب بانقضاء أجل التأمين الذى منحه لهم ، وذلك بعمل أحد الأمور الآتية :

(١) قتلهم فى أى مكان وجدوا فيه من حلّ وحرم .

(٢) أخذهم أسارى ، وقد أبيض هنا الأسرى الذى حذر فى سورة الأنفال بقوله : « مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشُخِّنَ فِي الْأَرْضِ » لأن الإخنان وهو الغلب والقوة والسيادة قد وجد .

(٣) حصرهم وحبسهم حيث يعتصمون بمقل أو حصن ، بأن يحاط بهم ويمنعوا من الخروج والانفلات حتى يساموا وينزلوا على حكمهم بشرط رضونه أو بدون شرط .

(٤) التعمد لهم كل مرصد : أى مراقبتهم فى كل مكان يمكن الإشراف عليهم فيه ، ورؤية تجوالهم وتقلبهم فى البلاد .

وهذه الآية تسمى آية السيف ، إذ جاء الأمر فيها بالقتال وقد كان مؤجلا ومنسأ إلى أن يقوى المسلمون ، وكان الواجب عليهم فى حال الضعف الصبر على الأذى .

( فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة تفلوا سيئهم إن الله غفور رحيم ) أى فإن تابوا عن الشرك الذى يحملهم على عداوتكم وقاتلكم ودخلوا فى الإسلام بأن نطقوا بالشهادتين ، وأقاموا الصلاة المفروضة كما تقيمونها فى الأوقات الخمسة ، والصلاة فظهر الإيمان وأكبر أركانه ، وهى مطلوبة من الغنى والفقير والأمير والمأمور ، وهى حق الله على عباده تركى أنفسهم وتهذب أخلاقهم وتؤهلهم للقيام بحقوق عباده .

« إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ » وآتوا الزكاة المفروضة فى أموال

الأغنياء للفقراء والمصالح العامة - فخلوا سبيلهم واتركوا لهم طريق حريتهم بالكف عن قتالهم إذا كانوا مقاتلين ، وبالكف عن حصرهم إذا كانوا محاصرين ، وبالكف عن رصد مسالكهم إلى البيت الحرام وغيره إذا كانوا مراقبين ، والله يغفر لهم ما سبق من الشرك وغيره من سيئاتهم ويرحمهم فيمن يرحم من عباده ، وقد جاء في الأثر « الإسلام يجِبُّ ما قبله » .

وفي الآية إيماء إلى أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يوجبان لمن يؤديهما حقوق المسلمين من حفظ الدم والمال إلا بما يوجب عليه الشرع من جنابة تقتضى حدا معلوما أو جريمة توجب تعزيرا أو تعريما .

روى الشيخان عن عبد الله بن عمر مرفوعا « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله » .

والمخالصة - إن اشتراط الأشياء الثلاثة للكف عن قتال المشركين للتحقق من دخولهم في جماعة المسلمين بالفعل ، والتزامهم شرائع الإسلام وإقامة شعائره ، إذ مقتضى الشهادة الأولى ترك عبادة غير الله ، ومقتضى الشهادة الثانية طاعة الرسول فيما يبلغه عن الله تعالى ، واكتفى من أركان الإسلام بالصلاة التي تجب في اليوم والليلة خمس مرات ، لأنها الرابطة الدينية الروحية الاجتماعية بين المسلمين ، وبالزكاة لأنها الرابطة المالية الاجتماعية ، فمن أقامهما كان أجدر بإقامة غيرهما .

( وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ) أى اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم إلا من طلب منكم الأمان ليعلم ما أنزل الله وأمر به من دعوة الإسلام ، فإن بعض المشركين لم تبلغهم الدعوة بلاغا مقنعا ولم يسمعوا شيئا من القرآن ، أو لم يسمعوا منه ما تقوم به الحججة عليهم ، فأعرضوا وعادوا الداعى وقتلوه ، لأنه جاء بتفنيد ما هم عليه من الشرك ، وتسفيه ما كان عليه آبائهم منه .

والمخالصة - وإن استأمنك أيها الرسول أحد من المشركين لكي يسمع كلام

الله ويعلم منه حقيقة ما تدعو إليه ، أو ليلتقاك وإن لم يذكر سببا - فأجره وأمنه على نفسه وأمواله لسكى يسمع أو لسكى يراك ، فإن هذه فرصة للتبليغ والاستماع ، فإن اهتدى وآمن عن علم واقنناع فذاك ، وإلا فالواجب أن تبليغه المكان الذى يأمن به على نفسه ويكون حرّاً فى عقيدته ، حيث لا يكون للمسلمين سلطان عليه ، وتعود حال الحرب إلى ما كانت عليه من غير غدر .

والمراد بالسماح أن يسمع المقدار الذى تقوم به الحجّة ويتبين به بطلان الشرك وحقيقة التوحيد والبعث وصدق الرسول فى تبليغه عن الله ، فإنه إذا ألقى إليه السمع لا يلبث أن يظهر له الحق إذا لم تصده العصبية والمدوان للداعى ، فإن لم يفعل ذلك كان له شأنه وكانت له حرّيته ، ولكنه يمنع من مساكنة المسلمين فى دار الإسلام وهو على هذه الحال .

( ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ) أى إن ما ذكر من إجارة المستجير من المشركين إلى أن يسمع كلام الله من جراء أنهم قوم جاهلون لا يدرون ما الكتاب وما الإيمان ، وما أعرضوا إلا عن جهل وعصبية واغترار بالقوة وإصرار على الجفوة . فإذا هم شعروا بضعفهم وصدق وعد الله بنصر المؤمنين عليهم ، وأعدم ذلك للعلم بما كانوا يجهلون ، وطلبوا الأمان لهذا السبب أو اعرض آخر يترتب عليه إمكان تبليغهم الدعوة وإسماعهم كلام الله - أجبوا إلى ذلك لأن هذه الطريق المثلى لتعليمهم وهدايتهم ، والرسول صلوات الله عليه إنما أرسل مبشرا ونذيرا .

وفى الآية إيماء إلى أن التقليد فى الدين غير كاف ، وأنه لا بد من النظر والاستدلال ، لأنه لو كان كافيا لوجب الأيهام للكافر ، بل يقال له : إما أن تؤمن وإما أن تقتلك ، فأمهانه ليحصل له النظر والاستدلال ، فإن ظهر على المشرك علامات القبول للحق ببجته عن الدليل والتفكير فيه أمهل وترك ، وإن ظهر أنه معرض عن الحق لم يلتفت إليه ووجب تبليغه إلى آمنه .

كَيْفَ يَكُونُ الْمُشْرِكِينَ عَهْدًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ؟ إِلَّا الَّذِينَ  
عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ، إِنَّ  
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا  
وَلَا ذِمَّةً، يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨)

### شرح المفردات

ظهر عليه : غلبه وظفر به ، ورقب الشيء : رعاه وحاذره لأن الخائف يرقب  
العقاب ويتوقعه ، ومنه فلان لا يرقب الله في أمره : أى لا ينظر إلى عقابه ، فيركب  
رأسه في المعصية ، والإيل : القرابة . قال ابن مقبل :

أفسد الناس خُلوْفَ خَلْفُوا قَطَعُوا الْإِيْلَ وَأَعْرَاقَ الرَّحِمِ

والذمة والذمام : العهد الذى يلزم من ضيعه الدم ، وكان خفر الذمام ونقض  
العهد عندهم من العار ، فاسقون : أى خارجون من قيود العهود والمواثيق متجاوزون  
لحدود الصدق والوفاء ، من قولهم : فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر براءة الله ورسوله من المشركين وإيهاهم أربعة أشهر يسيحون  
فى الأرض أحرارا ، ثم ذكر دعوتهم إلى التوبة من الشرك وإنذارهم سوء العاقبة ،  
ثم أمر بما يترتب على النبذ وهو عود حال الحرب معهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم التى  
وقفت بها ، بمناجزة المشركين بكل أنواع القتال المعروفة فى ذلك العصر من قتل  
وأسر وحصر وقطع طرق الوصول عليهم ، إلا من يستجير بالرسول لىسمع كلام  
الله فإنه يجار حتى يسمعه - قفى على ذلك ببيان أن هذا النبذ وما يترتب عليه  
إنما هو معاملة للأعداء بمثل ما عاملوا به المؤمنين أو دونه .

## الإيضاح

( كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ) المراد من المشركين الناكثون للعهد لأن البراءة إنما هي في شأنهم ، أى بأى حال يكون لهؤلاء المشركين عهد معتدّ به عند الله وعند رسوله يستحق أن يراعى ويحافظ عليه إلى إتمام المدة بحيث لا يتعرض لهم على حسبه قتلاً وأخذاً ، وحالهم ما بين في الآية التالية - إن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة .

( إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ) أى كيف يكون للمشركين عهد مع إضمار الغدر فيما وقع من العهود إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام وهم بنو كنانة وبنو ضمرة ، لأنهم ممن كان قد أقام على عهده ولم يدخل في نقض ما كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش يوم الحديبية من العهد .

( فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ) أى فهؤلاء تبرصوا بهم ولا تقتلواهم ما استقاموا لكم على العهد ، إذ لا يجوز أن يكون نقضه من قبلكم .

( إن الله يحب المتقين ) أى الذين يتقون الغدر ونقض العهد ، وهؤلاء المعاهدون المذكورون هنا: هم المذكورون أولاً بقوله: إلا الذين عاهدتم من المشركين الخ ، وإنما أعيد ذكره هنا لبيان أنه يجب أن تكون الاستقامة على العهد مرعية من الطرفين المتعاقدين إلى نهاية مدته ، وبيان استباحة نبذ عهد الذين لا يستقيمون للمعاهد لهم إلا عند العجز عن الغدر حتى إذا ما قدروا عليه نقضوا عهده أو نقضوا منه كما فعلت قريش في نقض عهد الحديبية بمظاهرتهم لحلفائهم من بنى بكر على خزاعة أحلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

( كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ) أى كيف يكون للمشركين غير هؤلاء الذين جرتبم وفاءهم - عهد مشروع عند الله مرعى الوفاء عند رسوله - وحالهم المعروفة من أخلاقهم وأعمالهم أنهم إن يظهروا عليكم في القوة والغلب ، لا يرقبوا الله ولا القرابة في نقض العهد والميثاق .

والخلاصة — إنه لا عهد لمن كان له عهد وغدر فيه ، وكذا من لا عهد له منهم . لأنهم لشدة عداوتهم للمؤمنين لم يقيدوا أنفسهم معهم بعهد سلم مطلق ولا مؤقت . ثم بين ما تنطوى عليه جوارحهم من الضغينة للمؤمنين فقال :

( يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ) أى هم يخادعونكم حال الضعف بما يفوهون به من كلام معسول يرون أنه يرضيكم سواء أكان عهدا أم وعدا أم أيمانا مؤكدة ، وقلوبهم مملوءة ضغنا وحقدا « يَقُولُونَ بِاللَّسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » فهم إن ظهروا عليكم نكثوا اليهود وحنثوا بالآيمان وفتكوا بكم بقدر ما يستطيعون .

وإنما يفعلون ذلك لأن أكثرهم خارجون من قيود اليهود والمواثيق متجاوزون لحدود الصدق والوفاء ، فليس لهم مروءة رادعة ، ولا عقيدة وازعة ، ولا يتعففون عن الغدر وعما يجر إلى سوء الأحداثثة وثلم العرض . وإنما وصف الأكثر ، لأنهم هم الناكثون الناقضون لعهدهم ، وأقلهم الموفون الذين استثناهم الله تعالى وأمر المؤمنين بالاستقامة لهم ما استقاموا لهم .

اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَا لَآ ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر غلبة الفسق والخروج من الفضائل الفطرية والتقليدية على أكثرهم حتى مراعاة القرابة والوفاء ونحوها مما يمدح عندهم — أردف ذلك بذكر السبب فى هاتين الآيتين .

## الإيضاح

( اشترؤا بآيات الله ثمنا قليلا فصدؤا عن سبيله ) أى استبدلؤا بآيات الله الدالة على توحيدده بالعبادة ، وعلى الوحى والرسالة وما فيها من الهداية للناس ، وعلى البعث والجزاء على الأعمال - ثمنا قليلا من حطام الدنيا ، وهو ما هم فيه من رخاء العيش وكثرة الأموال ، فصدؤا بسبب هذا الشراء الخسيس أنفسهم عن الإسلام وما يقتضيه من الوفاء وصدؤا غيرهم أيضا ، وجعله قليلا لأنه زائل غير باق وما عند الله باق دائم وهو خير وأبقى ، لأن ما عندهم قليل بالنظر إلى ما عند غيرهم .

روى أن أباسفيان لما أراد حمل قرش وحلفائها على نقض عهد الحديبية صنع لهم طعاما استألمهم به فأجابوه إلى ما طلب .

( إنهم ساء ما كانوا يعملون ) أى قبيح عملهم الذى يعملونه من اشتراء الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى ، والصد عن دين الله وما جاء به رسوله من المينات والهدى .

( لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ) أى ومن أجل هذا الكفر لا يرعون فى مؤمن يقدرون على الفتك به قرابة تقتضى الود ، ولا ذمة توجب الوفاء بالعهد ، ولا ربا يحرم الخيانة والغدر ، فذنب المؤمن عندهم أنه لا ينقض عهدا ولا يستحل غدرا ولا يقطع رحما .

( وأولئك هم المعتدون ) أى المتجاوزون للغاية القصوى من الظلم ، والعلالة فى هذا رسوخهم فى الشرك وكرهاتهم للإيمان وأهله ، فلا علاج لهم إلا الرجوع عن الكفر والاعتصام بالإيمان والتمسك بفضائل الأخلاق وما يقتضيه الإيمان من صالح الأعمال .

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ،  
وَنُفَّصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ

وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّكُمْ  
يَتَنَبَّهُونَ (١٢) .

## المعنى الجملي

بعد أن أبان سبحانه عداوة المشركين للمؤمنين - أردف ذلك بما سيكون من  
أمرهم بعد ذلك وهو لا يعدو أحد أمرين فصلهما في هاتين الآيتين .

## الإيضاح

(١) (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين) أى فإن رجع  
هؤلاء المشركون الذين أمرتكم بقتالكم ، عن شركهم بالله إلى الإيمان به وبرسوله  
وأتابوا إليه وأطاعوه فأقاموا الصلاة أى أدوها بشروطها وأركانها، وآتوا الزكاة المفروضة  
فيهم إخوانكم في الدين الذى أمركم به ، لهم مالكم وعليهم ما عليكم ، وبهذه الأخوة  
يزول كل ما كان بينكم من إحن وعداوات ، ولا تعارف أجل من التعارف فى  
المساجد لإقامة الصلوات وأداء الصدقات بمواساة الغنى للفقير ، وهذه المزية الدينوية  
كانوا محرومين منها ، إذ كان بعضهم حرباً لبعض إلا ما كان من عهد أو جوار .  
(ونفصل الآيات لقوم يعلمون) أى وإنا نبين حجج الله وأدلته على خلقه  
لقوم يعلمون ما نبين لهم بعد أن نشرحها مفصلة فيفقهونها ، دون الجهال الذين  
لا يعقلون عن الله بيانه ومحكم آياته .

(٢) (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أمة الكفر)  
يقال نكث الغزل والحبل : حل الخيوط التى تألف منها وأرجعها إلى أصلها ، والإيمان  
العهود وقد كان كل من العاقدين للعهد يمينه فى يمين الآخر .

أى وإن نكث هؤلاء ما أبرمته أيمانهم من الوفاء بالعهد الذى عقدوه معكم ،  
وعابوا دينكم واستهزؤوا به وصدوا الناس عنه ، ومن ذلك الطعن فى القرآن وفى النبى

صلى الله عليه وسلم كما كان يفعل شعراؤهم الذين أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دماءهم فقاتلهم فهم أمة الكفر وحملة لوائه المتقدمون على غيرهم بزعمهم ، فهم الأجدر بالقتل والقتال .

(إنهم لا إيمان لهم) أى إن عهودهم لا قيمة لها ، فهي مخادعة لسانية لا يقصد الوفاء بها كما قال سبحانه « يَقُولُونَ بِاللَّسْتِنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » فما أسرع ما تنقض إذا وجدت الفرصة سانحة .

(لعلهم ينتهون) أى قاتلوهم رجاء أن ينتهوا بقتالكم إياهم عن الكفر ونكث الأيمان ونقض العهود والعودة إلى قتالكم كما قدروا عليه .

وفى ذلك إيماء إلى أن القتال لا يكون اتباعا لهوى النفس ، أو إرادة منافع الدنيا من السلب والنهب وإرادة الانتقام ، وهذه ميزة الإسلام ، إذ جعل الحرب ضرورة لإرادة منع الباطل وتقرير الحق .

أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ  
بَدَءُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ؟ أَلَمْ تَخْشَوْهُمْ ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ  
مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ  
وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ  
عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)

### المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بقتال أمة الكفر - ذكر السبب الذى يبعث على قتالهم ، ولعل الله قد علم أن فى نفس جماعة من المؤمنين كرها لقتال من بقى من المشركين بعد فتح

مكة وظهور الإسلام لأمنهم من ظهورهم عليهم ورجائهم في إيمانهم ، وعلم أنه يوجد من المنافقين من يزبنون لهم ذلك ، والله يريد أن تطهر جزيرة العرب من خرافات الشرك وأدران الوثنية ، ويمحص المؤمنين من النفاق ومثاله .

من جرّاء هذا أعاد الكرة بإقامة الأدلة على وجوب قتال الناكثين للعهد المعتدين عليهم بالحرب الذين بدءوهم بالقتال وهموا بإخراج الرسول أو حبسه أو قتله .

## الإيضاح

( الأتقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة ؟ )  
أي قاتلوا هؤلاء المشركين لأسباب ثلاثة :

(١) إنهم نكثوا الأيمان التي حلفوها لنا كيد عهدهم الذي عقده مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على ترك القتال عشرين عاماً فيمن فيها الفريقان على أنفسهم ، ويكونون فيها أحراراً في دينهم ، لكنهم لم يلبثوا أن ظاهروا حلفاءهم بنى بكر على خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم ليلاً بالقرب من مكة على ماء يسمى الهجير ، وكان هذا من أفظع أنواع الغدر ، ولما علم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لانصرت إن لم أنصركم » وتجهز إلى مكة سنة ثمان من الهجرة .

(٢) إنهم هموا بإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم من وطنه أو حبسه حتى لا يبلغ رسالته ، أو قتله بأيدي عصابة من بطون قريش ليتفرق دمه في القبائل ، فتتخذ المطالبة به ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .

(٣) إنهم بدءوا بقتال المؤمنين في بدر حين قالوا بعد العلم بنجاة غيرهم : لانصرف حتى نستأصل محمداً وأصحابه ونقيم في بدر أياماً نشرب الخمر وتعزف على رءوسنا القيان ، وكذا في أحد والخندق وغيرها .

وبعد أن أورد البراهين والحجج الموجبة لقتالهم قال :

( أنخشونهم ؟ ) أى أبعدها كله تتركون قتالهم خوفاً منكم وجُبناً ؟ .

( فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ) أى فالله أحق أن تخشوا مخالفة أمره

وترك مخالفة عدوه ، إذ المؤمن حق الإيمان لا يخشى إلا الله ، لأنه يعلم أنه هو الذى

بيده النفع والضرر ، ولا يقدر أحد على مضرة أو نفع إلا بمشيئته ، فإن خشى غيره

بمقتضى سننه تعالى فى أسباب الضرر والنفع ، فلا ترجح خشيته على خشية الله ، بأن

تحملة على عصيانه ومخالفة أمره ، بل يرجح خشيته تعالى على خشية غيره .

وهذا احتجاج آخر على جماعة المسامحين الذين لا يخلو أن يكون بينهم جماعة من

المنافقين ومرضى القلوب الذين يكرهون القتال إذا لم توجه الضرورة كما قال :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ » أو رجاء انتشار الإسلام بدونه بعد فتح

مكة والطائف وهدم دولة الشرك .

وخلاصة ما سلف — إنه بعد تلك الحجج التى تقدم ذكرها ، لم يبق من سبب

يمنع قتالهم إلا الخشية لهم والخوف من قتالهم ، وخشية الله أحق وأجدر إن كنتم

مؤمنين حقاً ، كيف وقد نصركم الله عليهم فى مواطن كثيرة مع ضعفكم وقوتهم

وقلتكم وكثرة عديدهم .

وفى الآية إيماء إلى أن المؤمن يجب أن يكون أشجع الناس وأعلامهم همة

ولا يخشى إلا الله .

وبعد أن أقام الأدلة على وجوب قتالهم ، وفند الشبه المانعة من ذلك — أمرهم به

أمرًا صريحًا مع وعده لهم بالنصر وإظهار المؤمنين عليهم ، وهذه العدة من أخبار

الغيب فى وقعة معينة ، وقد صدق الله وعده فقال :

( قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم

مؤمنين ) أى قاتلوهم كما أمرتكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك يعذبهم الله بأيديكم ويمكنكم

من رقابهم قتلاً ، ومن صدورهم ونحوهم طعناً ، ويخزهم بذل الأسر والقهر والفقر لمن

لم يقتل منهم ، وينصركم عليهم حتى لا تقوم لهم قائمة بعد هذا ، فلا يعودون إلى قتالكم كما كان شأنهم بعد وقعة بدر ، ويشف صدوركم مما نالوا منكم من الأذى ولم تكونوا تستطيعون دفعه - وقد كان في صدورهم من موجدة القهر والذل ما لا شفاء له إلا بهذا النصر عليهم - وهؤلاء المؤمنون هم الذين غدر بهم المشركون كخزاعة وغيرها ممن كانوا في دار الشرك عاجزين عن الهجرة ، وروى عن ابن عباس أنهم بطون من اليمن وسبأ قدموا إلى مكة وأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيرا ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون إليه فقال صلى الله عليه وسلم « أبشروا فإن الفرج قريب » .  
 (ويذهب غيظ قلوبهم) الذى كان قد وقر فيها من غدر المشركين وظلمهم ، ومن طال تأذيه من خصمه ثم مكنه الله منه على أحسن الوجوه وأكملها فإنه يعظم سروره ويصير ذلك سببا لقوة النفس وصدق العزيمة .

وهذا الخزي والتعذيب الذى سينزله بهم لا يعمهم ، بل هو خاص بمن استحوذ عليهم الكفر ، فلم يبق فيهم استعداد للإيمان .  
 ( ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم ) أى وأما غيرهم فسيتمتع الله عليهم من شركهم ويوقفهم للإيمان ويتقبله منهم ، وهو العالم بما لا تعلمون من استعدادهم فى الحال والاستقبال ، الحكيم فيما يشرع لهم من الأحكام لإقامة دينه وإظهاره على الدين كله .  
 ومن سننه تعالى تفاوت البشر فى العقائد والأخلاق والأعمال ، وقابلية التحول من حال إلى حال بما يطرأ عليهم من الأسباب والمؤثرات على حسب المقادير الإلهية الثابتة بآيات التنزيل ونظم الاجتماع .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) .

## شرح المفردات

الوليعة: ما يلج في الأمر أو القوم مما ليس منه أو منهم كالدخيلة، ويطلق على الواحد والكثير، ويراد بها هنا بطانة السوء من المنافقين والمشركين.

## المعنى الجملى

كان الكلام في الآيات التي قبل هذه في بيان حال المشركين من مواصلتهم ما بدعوا به من قتال المؤمنين لأجل دينهم، وقتال المؤمنين لهم على الوجه الذي قامت به الحجج الناصعة على كون المؤمنين على الحق في هذا القتال؛ والكلام الآن في بيان حال جماعة المسلمين وشأنهم في الجهاد الحق الذي يتوقف عليه تمحيصهم من ضعف الإيمان والهوادة في حقوق الإسلام.

## الإيضاح

( أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ) الخطاب هنا لجماعة المسلمين الذين من بينهم منافقون ومرضى القلوب يثبطون عن القتال .

والمعنى — هل جاهدتم المشركين حق الجهاد وأمنتم عودتهم إلى قتالكم كما يدعوكم أول مرة ، وأمنتم نكت من عاهدتم منهم لأيمانهم كما نكثوا من قبل ؟ وهل عاهدتم أنهم تركوا الطعن في دينكم وصدّ الناس عنه كما هو دأبهم منذ ظهور الإسلام ؟ وهل نسيت ما اعتذر به المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك من أعذار ملفقة كاذبة ، وما كان من تشبيط من خرج منهم معكم عن القتال ؟ أم حسبتم أن تتركوا وشأنكم بغير فتنة ولا امتحان ، ولم يتبين الخالص من المجاهدين منكم الذين لم يتخذوا لأنفسهم بطانة من المشركين

الذين يحادون الله تعالى بالشرك به ، ويحادون الرسول بالصد عن دعوته ، ويقاتلون المؤمنين أنصار الله ورسوله - من المنافقين الذين يطلعون أولئك الولايج على أسرار الملة ويقفونهم على سياسة الأمة كما يفعل المنافقون في كل زمان .

ونحو الآية قوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْتُونَكُمُ خَبْرًا وَلَا يُؤَدُّوهُمَا إِلَيْكُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ » .

وقد عبر سبحانه عن عدم ظهور هؤلاء المجاهدين وتميزهم من المنافقين وضعفاء الإيمان - بعدم علمه بهم ، لأن عدم علمه بالشيء دليل على عدم وجوده .

ولا يظهر هؤلاء المتازون إلا بالابتلاء بالشدائد كما جاء في قوله : « أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ » .

( والله خبير بما تعملون ) الآن وبعد ذلك وقبله ، محيط بكل شيء علما ، وقد مضت سنته تعالى بأن التكليف الذى يشق على الأنفس هو الذى يمحص مافى القلوب ويظهر السرائر بقدر ما فيها من حسن الاستعداد ، ويبرز السرائر الخبيثة ويظهر سوء استعدادها .

وخلاصة المعنى - أظنتم أن تتركوا قبل أن يتم التمييز والتمحيص والتميز بين الصادقين فى جهادهم والكاذبين فاسدى السريرة ومتخذى الوليجة ، وهو لم يعلم الصادقين فى الجهاد لأنهم لم يميزوا من غيرهم بالفعل ، وما لا يعلم الله وجوده فلا وجود له ، إذ لا يخفى عليه شيء من أمركم ، وهو الخبير بكل ما تعملون .

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ، أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ، وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧)

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى  
الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ ، فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)

## شرح المفردات

المساجد : واحدها مسجد، وهو مكان السجود ثم صار اسما للبيت الذي يعبد فيه  
الله وحده كما قال : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » وعمارة المسجد :  
تطلق تارة على لزومه والإقامة فيه للعبادة أو لخدمته بتنظيفه أو ترميمه أو نحو ذلك ،  
وتطلق أخرى على زيارته للعبادة فيه ، ومنها النسك المخصوص المسمى بالعمرة .

## المعنى الجملى

بعد أن فتح المسلمون مكة وأدال الله للتوحيد من الشرك وللحق من الباطل ،  
وزالت ولاية المشركين عن المسجد الحرام وطهره الرسول صلى الله عليه وسلم مما كان  
فيه من الأصنام ، بقي عليه أن يطهره من العبادات الباطلة التي كان المشركون يأتونها  
فيه ويبين لهم أن المسلمين أحق به منهم ، ومن ثم آذنتهم بنبذ عهدهم وأمر عليًا أن  
يتلو عليهم أوائل سورة براءة على مسامح وفودهم يوم الحج الأكبر من سنة تسع للهجرة،  
وكان مما يتضمنه هذا البلاغ العام أن يعلموا أن عبادتهم الشركية ستمنع من المسجد  
الحرام بعد ذلك العام ، فنادى على وأعوانه في يوم النحر بمنى : لا يحج بعد هذا العام  
مشرك ولا يطوف بالبيت عريان .

وإنما أمهلهم هذا العام من قبل أن فيهم أبواب عهد مع المسلمين ، كان من  
شروطه ألا يمنع أحد الفريقين الآخر من دخول المسجد الحرام - إلى أنه كان يتعذر  
منع من لاعهد لهم بدون قتال في أرض الحرم ، إذ لا يمكن التمييز بين المشرك والمسلم  
ولا المعاهد من غيره إلا بعد وصولهم إلى البيت وشروعهم في الطواف فيه .  
لهذا كله ناسب أن يذكر بعد نبذ اليهود وإعلام جماهيرهم به قبل تنفيذه بزمن

منع عبادة الشرك من المسجد الحرام وإبطال ما كان المشركون يدعون به ويفخرون به من حق عمارته ، مع تئيبهم من الاشتراك فيها ، وهذا هو ما تضمنته الآيتان الكريمتان المذكورتان هنا .

روى عن ابن عباس أنه قال : لما أسر العباس يوم بدر غيره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم وأغلظ له على في القول ، فقال العباس : مالكم تذكرون مساوينا ولاتذكرون محاسنا ! فقال على كرم الله وجهه : ألكم محاسن ؟ فقال نعم : إننا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحاج فأنزل الله : ( ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله ) الآية .

## الإيضاح

( ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ) أى ما كان من شأن المشركين ولا مما ينبغى لهم أن يعمروا مساجد الله التى منها المسجد الأعظم وهو بيته الحرام بالإقامة فيه للعبادة أو الخدمة والولاية عليه ، ولأن يزوره حجاجا أو معتمرين ، وقد شهدوا على أنفسهم بالكفر قولاً وعملاً بعبادتهم للأصنام والاستشفاع بها والسجود لما وضعوه منها فى البيت عقب كل شوط من طوافهم وقولهم حينئذ : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .

إذ فى عملهم هذا جمع بين الضدين ، فإن عمارة البيت الحسية إنما تكون لعمارته المعنوية بعبادته تعالى وحده ، وذلك لا يقع إلا من المؤمن الموحد لسكرتهم يشركون به غيره ويساوونه ببعض خلقه فى العبادة .

وخلاصة ذلك — إنهم يجمعون بين أمرين لا يعقل الجمع بينهما على وجه صحيح عمارة البيت الحرام بزيارته للحج أو العمرة ، والكفر بربه بمساواته ببعض خلقه من لأصنام والأوثان .

وقوله : شاهدين على أنفسهم ، أى إنهم كفروا كفرا صريحا معترفا به لا يمكن المكابرة فيه .

والمراد بالعارة المنوعة عن المشركين للمساجد الولاية عليها والاستقلال بالقيام بمصالحها كأن يكون الكافر ناظرا للمسجد وأوقافه ، أما استخدام الكافر فى عمل لا ولاية فيه كمنحت الحجارة والبناء والتجارة فلا يدخل فى ذلك .

والمسلمين أن يقبلوا من الكافر مسجدا بناه كافر أو أوصى ببناؤه أو ترميمه إذا لم يكن فى ذلك ضرر دينى ولا سياسى ، كما لو عرض اليهود الآن على المسلمين أن يعمروا المسجد الأقصى بترميم ما كان قد تداعى من بناؤه ، أو بذلوا ذلك مالا لم يقبل منهم ، لأنهم يطمعون فى الاستيلاء على هذا المسجد ، فرجما جعلوا ذلك ذريعة لادعاء حق لهم فيه .

( أولئك حبطت أعمالهم ) أى أولئك المشركون الكافرون بالله وبما جاء به رسوله قد بطلت أعمالهم التى يفخرون بها من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج وقرى الضيف وصلة الرحم ونحو ذلك مما كانوا يعملونه فى دنيائهم ، فلم يبق له أثر ما فى صلاح أنفسهم ما داموا مقيمين على الشرك ومفاسده .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقوله : « وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

( وفى النار هم خالدون ) أى وهم مقيمون فى دار العذاب إقامة خلود وبقاء لكفرهم الذى أحبط أحسن أعمالهم ودسى أنفسهم حتى لم يبق لها أدنى استعداد لجوار ربهم فى دار الكرامة والنعيم .

( إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ) أى إن المستحقين لعارة المساجد هم الجامعون بين الإيمان بالله على

الوجه الذى بينه فى كتابه من توحيده واختصاصه بالعبادة والتوكل عليه ، والإيمان باليوم الآخر الذى يحاسب الله فيه عباده ويمجزى كل نفس ما كسبت ، مع إقامة الصلاة المفروضة على وجه جامع بين أركانها وآدابها وتدبر تلاوتها وأذكارها ، وبذا تكسب من يقمها مراقبة ربه وخشيته والخشوع إليه ، وإعطاء زكاة الأموال لمستحقيها من الفقراء والمساكين ، وخشية الله دون غيره مما لا ينفع ولا يضر كالأصنام وغيرها مما عبد من دون الله خوفاً من ضرره أو رجاء نفعه .

( فسمى أولئك أن يكونوا من المهتدين ) أى فأولئك الذين يجمعون بين الأركان الهامة من أركان الإسلام هم الذين يرجون أن يكونوا من المهتدين إلى ما يجب الله ويرضيه من عمارة المساجد حساً ومعنى على حسب سننه تعالى فى أعمال البشر وتأثيرها فى نفوسهم ، وبذا يستحقون عليها الجزاء فى جنات النعيم ، لأولئك المشركون الذين يجمعون بين أضدادها من الإيمان بالطاغوت والشرك بالله والكفر بما جاء به رسوله ، وينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله ، ومنع الناس من الإسلام .

هذا وقد ورد فى عمارة المساجد أحاديث كثيرة ، فقد روى الشيخان والترمذى عن عثمان رضى الله عنه أنه لما بنى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولامه الناس قال : إنكم أكثرتم وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من بنى لله مسجداً يتغنى به وجه الله بنى الله له بيتاً فى الجنة » .

وروى أحمد عن ابن عباس مرفوعاً « من بنى لله مسجداً ولو كفتحص (الموضع الذى تفحص التراب عنه وتكشفه لتبييض فيه) قطة لبييضها - بنى الله له بيتاً فى الجنة » .

وروى الشيخان وأبو داود وابن ماجه : أن امرأة كانت تقيم المسجد - تكنسه - فماتت ، فسأل عنها النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له ماتت ، فقال : أفلا كنتم أدتموني بها لأصلى عليها ؟ دلوني على قبرها ، فأتى قبرها فصلى عليها .

وروى أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم عن أبى سعيد قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان »  
وتلا (إنما يعمر مساجد الله) « الآية .

أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ  
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي  
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ  
وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ  
بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا  
أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) .

### شرح المفردات

السقاية : الموضع الذى يسقى فيه الماء فى المواسم وغيرها ، وسقاية العباس : موضع  
بالمسجد الحرام يستقى فيه الناس ، وهو حجرة كبيرة فى جهة الجنوب من بئر زمزم  
لا تزال ماثلة إلى الآن ، وقد يراد بالسقاية الحفرة كالحجابه وهى سدانة البيت ،  
والسقاية والحجابه أفضل مآثر قریش وقد أقرها الإسلام ، وفى الحديث :  
« كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمى الإسقاية الحاج وسدانة البيت » .  
وقد كانت قریش تسقى الحاج الزبيب المنبوذ فى الماء ، وكان يليها العباس  
ابن عبد المطلب فى الجاهلية والإسلام .

### المعنى الجملى

هذه الآيات مكملة لما قبلها مبينة أن عمارة المسجد الحرام للمسلمين دون المشركين،  
وأن إسلامهم أفضل مما كان يفخر به المشركون من عمارة المسجد الحرام وسقاية  
الحاج فيه .

روى مسلم وأبو داود عن النعمان بن بشير قال : « كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه فقال رجل منهم : ما أبالي ألا أعمل لله عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ، وقال آخر بل عمارة المسجد الحرام ، وقال آخر بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلت ، فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم - وذلك يوم الجمعة - ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأستفتيه فيما اختلفتم فيه ، فدخل بعد الصلاة فاستفتاه فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج - إلى قوله - والله لا يهدي القوم الظالمين) » .

### الإيضاح

( أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ؟ ) الخطاب في الآية للمؤمنين الذين تنازعوا - أي الأعمال أفضل - والمراد - إنه لا ينبغي أن تجعلوا أهل السقاية والعمارة في الفضيلة كن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، فإن السقاية والعمارة وإن كانتا من أعمال البر والخير فأصحابهما لا يدانون أهل الإيمان والجهاد في علو المرتبة وشرف المقدار ، وقد صرح بهذا في قوله :

( لا يستون عند الله ) أي لا يساوي الفريق الأول الفريق الثاني لافي صفته ولا في عمله في حكم الله ولا في مثوبته وجزائه عليه لافي الدنيا ولا في الآخرة ، فضلا عن أن يفضله كما يزعم كبراء مشركي قريش الذين كانوا يتبجحون بخدمة البيت ويستكبرون على الناس بها .

( والله لا يهدي القوم الظالمين ) أي لا يهديهم إلى الحق في أعمالهم ولا إلى الحكم العدل في أعمال غيرهم ، إذ ليس من سننه تعالى في أخلاق البشر وأعمالهم أن يهدي الظالم إلى شيء من ذلك ، ومن أقبح الظلم تفضيل خدمة حجارة البيت وحفظ مفتاحه وسقاية الحاج على الإيمان بالله وحده ، إذ به تطهر الأنفس من أدناس الشرك وخرافات ، وعلى الإيمان باليوم الآخر الذي يزرع النفس عن البغي والظلم ويجب

إليها الحق والعدل ، ويرغبها في الخير وعمل البر ابتغاء مرضاة الله لا للفخر والرياء ،  
وعلى الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال لإحقاق الحق وإبطال الباطل .

ثم بين سبحانه مراتب فضلهم إثر بيان عدم استوائهم هم والمشركين الظالمين فقال :  
( الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة  
عند الله ) أى هم أعظم درجة وأعلى مقاما في مراتب الفضل والكمال في حكم الله وأكبر  
مثوبة من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الذين رأى بعض المسلمين أن عملهم إياها  
من أفضل القربات بعد الإسلام .

فالذين نالوا فضل الهجرة والجهاد بنوعيه النفسى والمالى أعلى مرتبة وأعظم كرامة  
ممن لم يتصف بهما كائنا من كان ، ويدخل في ذلك أهل السقاية والعمارة .

( وأولئك هم الفائزون ) أى وأولئك المؤمنون المهاجرون المجاهدون هم الفائزون  
بمثوبة الله وكرامته دون من لم يكن مستجمعا لهذه الصفات الثلاث وإن سقى الحاج  
وعمر المسجد الحرام ، فإن ثواب المؤمن على هذين العمالين دون ثوابه على الهجرة  
والجهاد ، ولا ثواب للكافر عليهما فى الآخرة ، فإن الكفر بالله ورسله واليوم الآخر  
يجبب الأعمال البدنية وإن فرض فيها حسن النية .

ثم فصل سبحانه ذلك الفوز العظيم وبينه بقوله :

( يبشركم ربهم برحمة منه ورضوان وجات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدا )  
أى يبشركم ربهم فى كتابه على لسان رسوله ، وعلى لسان ملائكته حين الموت ،  
برحمة منه ورضوان كامل من لدنه لا يشوبه سخط ، وجات تجرى من تحتها الأنهار ،  
ولهم فيها نعيم مقيم لا يزول على عظمه وكاله ، حال كونهم خالدين فيها أبدا .

( إن الله عنده أجر عظيم ) أى إن ما عند الله من الأجر على الإيمان وصالح العمل  
الذى من أشقه الهجرة والجهاد عظيم لا يقدر قدره إلا الله الذى تفضل به ومنحه لعباده  
المكرمين ، ولا سيما على الإيمان الكامل الباعث على هجر الوطن ومفارقة الأهل

والسكن ، وعلى إنفاق المال الذى هو أحب شىء إلى النفس ، وعلى بذل النفس التى هى أعز شىء على الإنسان .

فما أجددهم أن ييشروهم بأنواع من الأجر والجزاء ما بين روحى وجسمانى ، فالأول الرحمة والرضوان . والرضوان : هو نهاية الإحسان وهو أعلى النعيم وأكمل الجزاء كما يدل على ذلك قوله : « وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » .

وفما رواه الشيخان والترمذى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ؟ فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ فيقول : أنا أعطيتكم أفضل من ذلك ، فيقولون ربنا وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » .  
والثانى : هو النعيم المقيم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ امْتْتَحَبُوا  
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ  
إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ  
اقتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ  
مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ  
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) .

### شرح المفردات

استحب كذا وأحبه : بمعنى ، والظلم : وضع الشىء فى غير موضعه ، والعشيرة :  
ذوو القرابة الأذنون الذين من شأنهم التعاون والتناصر ، والافتراق : الاكتساب ،

وكساد التجارة : ضد رواجها ، والتربص : الانتظار ، وأمره : عقوبته إن عاجلا أو آجلا .

## المعنى الجملى

لما أعلن الله براءته وبراءة رسوله من المشركين وأذنهم بنبذ عهودهم بعد أن ثبت أنه لا عهد لهم - عز ذلك على بعض المسلمين ، وتبرم به ضعفاء الإيمان وكان أكثرهم من الطلقاء الذين أعتقهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ، وكان موضع الضعف نصرته القرابة وعصبية النسب ، إذ كان لا يزال لكثير منهم أولو قرابة من المشركين يكرهون قتالهم ويتمنون إيمانهم ، بل كان لبعض ضعفاء الإيمان وليجة وبطانة منهم .

من أجل هذا بين الله في هاتين الآيتين أن فضل الإيمان والهجرة والجهاد ونيل ما بشر الله به أهله من رحمته ورضوانه ودخول جناته - لا يكمل إلا بترك ولاية الكافرين وإيثار حب الله ورسوله والجهاد في سبيله على حب الوالد والولد والأخ والزوج والعشيرة والمال والسكن .

## الإيضاح

( يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ) أى لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء تنصرونهم فى القتال وتظاهرون لأجلهم الكفار أو تطلعونهم على أسرار المؤمنين وما يستعدون به لقتال المشركين ، إن أصروا على الكفر وآثروه على الإيمان ، فإن فى ذلك قوة للمشركين على قتال المؤمنين وخضدا لشوكتهم؛ وقد حدث ذلك منذ ظهور الإسلام إلى نزول هذه السورة، فقد كتب حاطب بن أبى بلتعنة وهو من أهل بدر وقد استخفته نعمة القرابة إلى مشركى مكة خفية يعلمهم بما عزم عليه النبي صلى الله عليه وسلم من قتالهم ، ليتخذ له بذلك

يدا عندهم يكافئونه عليها بحماية ما كان له عندهم من قرابة ، وفي ذلك نزلت سورة المتحننة للنهي عن موالة أعداء الله وأعدائهم .

(ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) أى ومن يتولهم وهم على تلك الحال فأولئك المتولون لهم هم الظالمون لأنفسهم ولجماعتهم بوضعهم الموالة في غير موضعها ، فهم قد وضعوا الولاية في موضع البراءة ، والمودة في محل العداوة ، وقد حملهم على هذا الظلم نعمة القرابة وحمية الجاهلية .

ونحو الآية قوله في سورة المتحننة : « لا يَنْبَغُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا مَوَالِيَهُمْ بِغَيْرِ مَوَالِيَةٍ لَهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْبَغُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا مَوَالِيَهُمْ بِغَيْرِ مَوَالِيَةٍ لَهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْبَغُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا مَوَالِيَهُمْ بِغَيْرِ مَوَالِيَةٍ لَهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْبَغُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا مَوَالِيَهُمْ بِغَيْرِ مَوَالِيَةٍ لَهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . »

وبعد أن بين ما وصل إليه حالهم من الإخلال بالإيمان انتقل إلى بيان سبب ذلك فقال :

(قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) أى قل لهم : إن كنتم تفضلون حظوظ الدنيا وشهواتها من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله الذى وعدتم عليه أنواع السعادة الأبدية فى الآخرة ، فانتظروا حتى يأتي أمر الله : أى عقوبته التى تجل بكم عاجلا أو آجلا .

وقد ذكر سبحانه الأمور الداعية إلى مخالطة الكفار وحصرها فى أربعة :

(١) مخالطة الأقارب وذكر منهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج ثم ذكر

الباقي بلفظ العشيرة .

(٢) الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة .

(٣) الرغبة في تحصيل الأموال وثمارها بالتجارة .

(٤) الرغبة في الأوطان والدور التي بنيت للسكنى .

وخلاصة ذلك — إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية أولى عندكم من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة في سبيله ، فتربصوا بما تحبون حتى يأتي الله بعقوبة من عنده عاجلة أو آجلة .

ولا يخفى ما في ذلك من الوعيد والتهديد ، ومن الإيحاء إلى أنه إذا وقع التعارض

بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم نبذ الثانية وإلقاؤها وراء ظهرها .

وبتفصيل ما تقدم في الآية نجد أنها حوت أموراً ثمانية من أفضل ما يجب .

(أ) حب الأبناء للأباء وهو غريزي في النفوس فالولد بضعة من أبيه يرث

بعض صفاته وطبائعه من جسمية وخلقية ، وقد كان العرب يتفاخرون بأبائهم في أسواقهم وفي معاهد الحج كما قال تعالى حاثاً على ذكره : « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا » .

(ب) حب الأباء للأبناء وهو غريزي أيضاً ، وحب الوالد للولد أقوى وأبقى

من عكسه ، فهو يحرص على بقائه كما يحرص على نفسه أو أشد ، ويحرم نفسه كثيراً

من الطيبات إشاراً له بها في حاضر أمره ومستقبله ، ويكابد الأهوال ويركب

الضعاب ، ويقوم بتربيته وتعليمه ، إذ هو مناط الآمال وزينة الحياة كما قال تعالى :

« الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » .

(ج) حب الإخوة وهو يلي في المرتبة حب البنوة والأبوة ، وهو حب يقتضيه

التناصر والتعاون في الكفاح في الحياة ، والبيوت التي سلمت فطرة أهلها وكرمت

أخلاقهم يحبون إخوتهم كأنفسهم وأولادهم ، ويوقرون كبيرهم ، ويرحمون صغيرهم ،

ويكفلون من يتركه أبوه صغيراً فيترى مع أولادهم كأحدهم .

(د) حب الزوجة ؛ وبالزوجية يتحد بشران يتم وجود كل منهما وجود الآخر

وَيُنْتَجَبَانِ بَشْرًا مِثْلَهُمَا ، وَمَنْ ثُمَّ آمَنَ اللَّهُ عَلَيْنَا بِهِ فَقَالَ : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

(هـ) حب العشيرة ، وهو حب عصبية وتعاون وولاية ونصر في مواطن القتال والنزال والذود عن الحى والحريم ، وهو يكون على أشده في أهل البداوة ومن على مقربة منهم من أهل الحضرة .

(و) حب الأموال المتفرقة : أى المكتسبة ، وهو أقوى من حب الأموال الموروثة ، لأن عناء النفس في جمعها يجعل لها في قلبه منزلة لا تكون لما يجىء من المال عفوا .

(ز) حب التجارة التى يخشى كسادها في حال الحرب ، وقد كان لبعض المسلمين من أهل مكة تجارة يخشون كسادها في ذلك الحين ، لأن أكثر مستهلكيها كانوا من المشركين ، وكانت أسواقها تنصب في موسم الحج ، وقد منع منه المشركون بنص الآيات السابقة واللاحقة .

(ح) حب المساكن الطيبة المرضية ، وقد كان لبعض المسلمين دور حسنة في مكة كانوا يتمتعون فيها بالإقامة والسكنى لما فيها من المرافق وأسباب الراحة .

فهذه الثمانية الأنواع من الحب تجعل القتال مكروها مبعوضا لدى النفوس فوق ماله من بغض بمقتضى ذاته كما قال تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ » .

أما حبه تعالى فيجب أن يكون فوق هذه الأنواع لفضله وإحسانه بالإيجاد والإعدام وتسخير منافع الدنيا للناس ، وهو يتفاوت بتفاوت معارف الإنسان في آلاء الله في خلقه وإدراك ما فيها من الإبداع والإتيان : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » .

وكذلك حب رسوله يجب أن يكون فوق هذه أيضا ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان المثل الأعلى في أخلاقه وآدابه ، وقد أرسله الله هداية للعالمين إلى يوم الدين .  
( والله لا يهدى القوم الفاسقين ) أى الخارجين من حدود الدين والشريعة ومن سلامة الفطرة إلى فساد الطباع ، ومن نور العقل إلى ظلمة الجهل والتقليد .

وقد جرت سنته تعالى أن يكون الفاسقون محرومين من الهداية الفطرية التي يهتدى إلى معرفتها الإنسان بالعقل السليم والوجدان الصحيح ، ومن ثم فهم يؤثرون حب القرابة والمنفعة الطارئة كالمال والتجارة على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله .  
هذا وقد جاءت أحاديث كثيرة في فضل حب الله ورسوله ، منها ما رواه الشيخان من حديث أنس مرفوعا « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » وعنه أيضا « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » وما رواه البخارى عن عبد الله بن هشام قال : « كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر : لأنت أحب إلى من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا والذي نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك التي بين جنبيك . فقال عمر : فإنه الآن والله لأنت أحب إلى من نفسى ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر » .

والوسيلة إلى هذه المعرفة والحب كثرة الذكر والفكر وتدبر القرآن والتزام أحكام الشرع .

والذكر الحق هو ذكر القلب مع حسن النية وصحة القصد وتأمل سنن الله وآياته في الخلق وأن تذكر حين رؤية كل شيء من صنع الله ، وسماع كل صوت من مخلوقات الله أنه يسبح بحمده تعالى ويدل على قدرته وحكمته ورحمته .

ومن أقام فرائض الله كما أمر، وترك معاصيه كما نهى، فإنه يصل بفضل الله إلى المقام الذى أشار إليه فى الحديث القدسى « وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها » رواه البخارى .

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَابَسْتُمْ مَدْبَرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧)

### شرح المفردات

المواطن : واحدها موطن، وهو مقر الإنسان ومحل إقامته كالوطن؛ والمراد بالمواطن هنا مشاهد الحرب ومواقعها، وحنين : واد على ثلاثة أميال من الطائف، وغزوته تسمى غزوة أوطاس وغزوة هوازن، والإغناء : إعطاء ما يدفع الحاجة، والرحب : السعة، ومدبرين : أى هاربين لا تلون على شيء، والسكينة : الهيئة النفسية التى تحصل من سكون النفس واطمئنانها، وهى ضد الانزعاج، وقد تطلق على الرزاة والوقار .

### المعنى الجملى

جاءت هذه الآيات لإقامة الحجة على صدق ما قبلها من النهى والوعيد وأن الخير والمصلحة للمؤمنين فى ترك ولاية أولى القربى من الكافرين، وفى إثبات حب

الله ورسوله والجهاد في سبيله على حب أولى القربى والعشيرة والمال والسكن ونحوها مما يجب - إذ أبان فيها أن نصر الله المؤمنين في المواطن الكثيرة لم يكن بقوة العصبية ولا بقوة المال ولا بما يشتري به من الزاد والعتاد ، بل كان بفضل الله عليهم بهذا الرسول الذي جاءهم بذلك الدين القويم ، وأن هزيمتهم وتوليهم يوم حنين كان ابتلاء لهم على عجبهم بكثرتهم ورضاهم عنها ، ونصرهم من بعد ذلك كان بعناية خاصة من لدنه ، ليتذكروا أن عنايته تعالى للمؤمنين بالقوة المعنوية لا بالكثرة العددية وما يتعلق بها .

### الإيضاح

( لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ) أى ولقد نصركم الله أيها المؤمنون في أما كن حرب توطنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم ، ومشاهد تلتفتون فيها أتم وهم في صعيد واحد للطعان والنزال إحقاقاً للحق وإظهاراً لدينه .

روى أبو يعلى عن جابر أن عدد غزواته صلى الله عليه وسلم إحدى وعشرون ، قاتل بنفسه في ثمان : بدر وأحد والأحزاب والمصطلق وخيبر ومكة وحنين والطائف .

وبعوثه وسراياه ست وثلاثون ، واختار جمع من العلماء أن المغازى والسرايا كلها ثمانون ولم يقع في بعضها قتال ، ونصرهم في كل قتال ، إما نصراً كاملاً وهو الأكثر وإما نصراً مشوباً بشيء من التريبة على ذنوب اقترفوها كما في أحد ، إذ نصرهم أولاً ثم أظهر عليهم العدو لمخالفتهم أمر القائد الأعظم في أهم أوامر الحرب وهو حماية الرماة لظهورهم ، وكما في حنين من الهزيمة في أثناء المعركة والنصر التام في آخرها .

( ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ) أى ونصركم أيضاً في يوم حنين وهو اليوم الذى أعجبتكم فيه كثرتكم إذ كنتم اثني عشر ألفاً وكان الكافرون أربعة آلاف فقط ، فقال قائل منكم : لن تغلب اليوم من قلة ، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فكانت الهزيمة : أى فكانت الهزيمة عقوبة على هذا الغرور والعجب وتريبة للمؤمنين

حتى لا يغتروا بالكثرة مرة أخرى ، فإنها ليست إلا أحد الأسباب المادية الكثيرة المؤدية للنصر .

ومعنى قوله: فلم تغن عنكم شيئا الخ - أن تلك الكثرة التي غرتكم لم تكن بكافية لا لتتصاركم ولم تدفع عنكم شيئا من عار الغلب والهزيمة ، وضاعت عليكم الأرض على رحبتها وسعتها ، فلم تجدوا وسيلة للنجاة إلا الهرب والفرار من العدو ، فوليتموه ظهوركم منهزمين لا تلونون على شيء .

( ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ) أى ثم أفرغ الله سكينته من لدنه على رسوله بعد أن عرض له الأسف والحزن على أصحابه حين وقوع الهزيمة لهم ، مع أنه على هذا لم يزد إلا ثباتا وشجاعة وإقداما - وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه وأحاطوا ببعثته الشهباء - وعلى سائر المؤمنين الصادقين فأذهب روعهم وأزال حيرتهم وأعاد إليهم ما كان قد زلزل من ثباتهم وشجاعتهم ، وخصوصا حين سمعوا نداءه ونداء عنه العباس إذ دعاهم بأمره - وأنزل مع هذه السكينة جنودا من الملائكة لم تروها بأبصاركم ، بل وجدتم أثرها في قلوبكم بما عاد إليها من رباطة الجأش وشدة البأس - وعذب الذين كفروا بالقتل والسبي والأسر ، وذلك هو جزاء الكافرين في الدنيا ماداموا يستحبون الكفر على الإيمان ويعادون أهله ويقاتلونهم عليه .

ونحو الآية قوله: « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ » .

( ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ) أى ثم يتوب الله بعد هذا التعذيب الذي يكون في الدنيا على من يشاء من الكافرين فيهديهم إلى الإسلام إذا لم تحط بهم خطيئات الشرك وخرافاتة ، ولم يَحْتَمِ على قلوبهم بالإصرار على الجحود والتكذيب ، وهو غفور لهم يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصي ، رحيم بهم يتفضل عليهم ويثيبهم بالأجر والجزاء .

## وقد هو ازن و اسلامهم و غنائهم

روى البخارى عن المسور بن مخرمة ، أن ناسا منهم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم و بايعوه على الإسلام و قالوا : يا رسول الله أنت خير الناس و أبر الناس و قد سبى أهلونا و أولادنا و أخذت أموالنا ، ( و قد سبى يومئذ ستة آلاف و أخذ من الإبل و الغنم ما لا يحصى ) فقال عليه السلام : إن عندى من ترون ، إن خير القول أصدق ، اختاروا إما ذراريكم و نساءكم و إما أموالكم ، قالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئا ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هؤلاء جاءونا مسلمين ، و إنا خيرناهم بين النزارى و الأموال ، فلم يعدلوا بالأحساب شيئا ، فمن كان بيده شيء و طابت به نفسه أن يرده فشأنه ، و من لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيئا فنعطيه مكانه ، قالوا رضينا و سلمنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنا لا ندرى لعل فيكم من لا يرضى ، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا ، فرفعت إليه العرفاء أنهم قد رضوا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ  
بَعْدَ طَهْرِهِمْ هَذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ،  
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)

### شرح المفردات

النجس : من نجس الشيء إذا كان قدرا غير نظيف و الاسم النجاسة ، و قال الراغب : النجاسة : القذارة ، و هى ضربان : ضرب يدرك بالحااسة ، و ضرب يدرك بالبصيرة ، و هذا ما وصف الله به المشركين فقال إنما المشركون نجس ، و يقال نجسه ، إذا جعله نجسا ، و نجسه : أزال نجسه و منه تنجيس العرب ، و هو شيء كانوا يفعلونه من تعليق عودة على الصبي ليدفعوا عنه نجاسة الشيطان ، و الناجس و النجيس : داء خبيث لا دواء له اه .

والعيلة : الفقر ، يقال عال الرجل يعيل عيلا وعية إذا افتقر فهو عائل ، وأعال :  
 كثر عياله ، وهو يعول عيالا كثيرين : أى يموتهم ويكفيهم أمر معاشهم ، والفضل :  
 العطاء والتفضل .

## المعنى الجملى

لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر حين أمره على الحج سنة تسع من الهجرة  
 أن يبلغ الناس أنه لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ثم أمر علياً أن يتبع أبا بكر فيقرأ  
 على الناس أول سورة براءة يوم الحج الأكبر وينبذ إليهم عهدهم ، وأن الله برئ  
 من المشركين ورسوله - قال ناس يا أهل مكة ستعاملون ما تلقون من الشدة لا تقطع  
 السبل وقد الجمولات ، فنزلت هذه الآية لدفع تلك الشبهة فقال سبحانه « وإن ختم  
 عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله » .

قال ابن عباس : كان المشركون يميثون إلى البيت ويميثون معهم بالطعام  
 يتجرون فيه ، فلما نهوا أن يأتوا البيت قال المسلمون : فمن أين لنا الطعام ؟ فأنزله الله  
 « وإن ختم عيلة » الآية قال فأنزل الله عليهم المطر وكثر خيرهم حين ذهب المشركون  
 عنهم ، وأسلم أهل اليمن وجاءهم الناس من كل فج .

## الإيضاح

( يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم  
 هذا ) أى إن المشركين أنجاس فاسدوا الاعتقاد يشركون بالله ما لا يضر ولا ينفع ،  
 فيعبدون الزجس من الأوثان والأصنام ، ويدينون بالحرافات والأوهام ، ويأكلون  
 الميتة والدم ، وهى أقدار حسية ، ويستحلون القمار والزنا ويستبيحون الأشهر الحرم  
 وهى أرجاس معنوية - من أجل هذا لا تمكنوهم بعد هذا العام أن يدخلوا المسجد  
 الحرام بدخول أرض الحرم ، فضلا عن دخول البيت نفسه وطوافهم فيه عمارة  
 يشركون بربهم فى التلبية ، وإذا صلوا لم تكن صلاتهم إلا مكاء وتصديفة .

وببلاد الإسلام في حق الكفار أقسام ثلاثة :  
 (١) الحرم ، ولا يجوز لكافر أن يدخله بحال لظاهر الآية ، وبذلك قال الشافعي وأحمد ومالك ، فلو جاء رسول من دار الكفر والإمام في الحرم لا يأذن له في دخوله بل يخرج إليه بنفسه أو يبعث إليه من يسمع رسالته في خارج الحرم ، وأبو حنيفة - يميز للمعاهد دخول الحرم بإذن الخليفة أو نائبه .

(٢) الحجاز وهو ما بين عدن إلى ريف العراق في الطول ، ومن جدة وما والاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام عرضاً ، ويجوز للكفار دخولها بالإذن ، ولكن لا يقيمون فيها أكثر من ثلاثة أيام .

روى مسلم عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلا مسلماً » وفي رواية لمسلم وأوصى فقال : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » فلم يتفرغ لذلك أبو بكر وأجلاهم عمر في خلافته ، وأخرج مالك في الموطأ « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب » .

وعن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الشيطان قد يئس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم » .  
 (٣) سائر بلاد الإسلام ، ويجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد وأمان ، ولكن لا يدخل المساجد إلا بإذن مسلم .

( وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ) أى وإن خفتهم فقرا بسبب قلة جلب الأقوات ، وضروب التجارات التي كان يجلبها المشركون من أرباب المزارع في الشعاب والوديان من البلاد ذات البساتين والمزارع كالطائف وأرباب المتاجر - فسوف يغنيكم الله من فضله ، وفضله كثير ، فقد صاروا بعد الإسلام ومنع المشركين من الحرم أغنى مما كانوا قبل ذلك ، فقد تعددت وسائل الغنى فيما بعد ، وصدق الله وعده فأسلم أهل اليمن وصاروا يجلبون لهم الطعام ، وأسلم أولئك المشركون ولم يبق أحد منهم يمنع من الحرم ، ثم جاءتهم الثروة من كل جانب بما فتح الله

عليهم من البلاد فكثرت الغنائم وتوجه إليهم الناس من كل فج ، ومهد الله لهم سبل الرزق من إمارة وتجارة وزراعة وصناعة ، وكان نصيب مكة من ذلك عظيما بكثرة الحاج وأمن طرق التجارة .

وقيد هذا الغنى بمشيئة الله التي لا يشك مؤمن في حصول ما تتعلق به ، لتقوية إيمانهم بربهم واتكالمهم عليه دون كسبهم وحده وإن كانوا مأمورين به لأنه من سننه في خلقه ، ولكن لا يجوز أن ينسوا توفيقه وتأيدده لهم فهو الذى نصرهم وأغناهم وسيزيدهم نصرا وغنى .

(إن الله عليم حكيم) أى إنه عليم بما يكون من مستقبل أمركم فى الغنى والفقير ، حكيم فيما يشرعه لكم من أمر ونهى كأمركم بقتال المشركين بعد انقضاء عهودهم ، ونهيكم عن قرب المشركين للمسجد الحرام بعد هذا العام ، ونهيكم عن اتخاذ آبائكم وإخوانكم منهم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان .

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) .

### شرح المفردات

يقال: فلان يدين بكذا إذا اتخذ دينا وعقيدة ، ودين الحق: هو الدين الذى أنزله الله على أنبيائه ، والجزية ضرب من الخراج يضرب على الأشخاص لا على الأرض ، وجمعها جزى (بالكسر) واليد: السعة والقدرة ، والصغار والصغر: ضد الكبر ويكون فى الأمور الحسية والمعنوية ، والمراد به هذا الخضوع لأحكام الإسلام وسيادته التى بها تصغر أنفسهم لديهم بفقد الملك وعجزهم عن مقاومة الحكم .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحكام المشركين في إظهار البراءة من عهودهم ، وفي إظهار البراءة منهم في أنفسهم ، وفي وجوب مقاتلتهم وإبعادهم عن المسجد الحرام - قفى على ذلك بحكم قتال أهل الكتاب وبيان الغاية منه ، وفي ذلك توطئة للكلام في غزوة تبوك مع الروم من أهل الكتاب والخروج إليها في زمن العسرة والقيظ ، وما يتعلق بها من فضيحة المنافقين وهتك حجب كفرهم وتمحيص المؤمنين ، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقاتل فيها الروم لما سيأتى بعد .

روى ابن المنذر عن ابن شهاب قال : أنزلت في كفار قریش والعرب ( وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ) وأنزلت في أهل الكتاب ( قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر - إلى قوله - حتى يعطوا الجزية ) فكان أول من أعطى الجزية أهل نجران قبل وفاته عليه الصلاة والسلام .

روى ابن أبى شيبه وأبو الشيخ عن الحسن قال : قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل هذه الجزيرة من العرب على الإسلام لم يقبل منهم غيره ، وكان أفضل الجهاد ، وكان بعده جهاد على هذه الآية في شأن أهل الكتاب ( قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ) الآية ، وعلى الجملة فالقتال الواجب في الإسلام إنما شرع للدفاع عن الحق وأهله وحماية الدعوة ونشرها ، ومن ثم اشترط أن تقدم عليه الدعوة إلى الإسلام .

والناظر إلى غزواته صلى الله عليه وسلم يرى أنها كلها كانت دفاعاً عن الدعوة ، وكذلك كانت حروب الصحابة في الصدر الأول ، ثم كان القتال بعد ذلك ضرورة من ضرورات الملك والدولة ، ومع ذلك فقد كان الإسلام فيها مثال الرأفة والرحمة والعدل .

## الإيضاح

( قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب ) أى قاتلوا أهل الكتاب ، إذ هم جمعوا أربع صفات هى العلة فى عداوتهم للإسلام ، ووجوب خضوعهم لحكمة ما داموا فى داره ، إذ لو أحيز لهم حل السلاح لأفضى ذلك إلى قتال المسلمين فى دارهم ومساعدة من يهاجمهم فيها كما فعل يهود المدينة وما حولها بعد تأمين النبي صلى الله عليه وسلم لهم ، وجعلهم حلفاء له ، وأجاز لهم الحكم فيما بينهم بشرعهم ، وسمح لهم بالعبادة على النحو الذى يريدون ، وكذلك فعل مع نصارى الروم فى حدود البلاد العربية .

وهذه الأمور الأربعة التى أسند إليهم تركها هى أصول كل دين إلهى ، ومن ثم أمر بقتال الذين لا يقيمونها وهى :

(١) إنهم لا يؤمنون بالله ، وقد شهد القرآن بأن اليهود والنصارى فقدوه بهدم أساسه وهو التوحيد ، إذ هم قد اتخذوا أجباهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، يشرعون لهم العبادات ويحرمون ويحللون فيتبعونهم ، وبذا أشركوهم فى الربوبية ، ومنهم من أشرك به فى الألوهية كالذين قالوا عزير ابن الله ، والذين قالوا : المسيح ابن الله ، أو هو الله .

(٢) إنهم لا يؤمنون باليوم الآخر ، إذ هم يقولون إن حياة الآخرة حياة روحانية محضة يكون فيها الناس كالملائكة ، لكننا نؤمن بأن الإنسان لا تنقلب حقيقته ، بل يبقى مؤلفا من جسد وروح ، ويتمتع بنعيم الأرواح والأجساد .

ولا يوجد فيما بين أيدي اليهود والنصارى من التوراة نصوص صريحة فى البعث والجزاء بعد الموت ، بل فيها إشارات غير صريحة فى ذلك .

(٣) إنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، فاليهود لا يحرمون ما حرم فى شرعهم

الذي جاء به موسى ونسخ بعضه عيسى ، ولا يلتزمون العمل بما حرم ، فقد استحلوا  
أكل أموال الناس بالباطل كالربا وغيره ، واتبعوا عادات المشركين في القتال والنفي  
ومفاداة الأسرى ، والنصارى استباحوا ما حرم عليهم في التوراة مما لم ينسخه  
الإنجيل ، فأباحوا جميع محرمات الطعام والشراب إلا ما ذبح للأصنام ، فقد ثبت  
في كتبهم أن الله حرم عليهم الشحوم فأذابوها وباعوها وأكلوا أثمانها ، وحرم عليهم  
أشياء كثيرة فأحلوها .

(٣) إنهم لا يدينون دين الحق ، إذ أن ما يتقلدونه إنما هو دين تقليدى  
وضعه لهم أساقفتهم وأخبارهم بأرائهم الاجتهادية وأهوائهم المذهبية ، لا دين الحق  
الذى أوحاه الله إلى عيسى وموسى عليهما السلام .

فاليهود لم يحفظوا ما است حفظوا من التوراة التى كتبها موسى وكان يحكم بها هو  
والنبيون من بعده ، إلى أن عاقبهم الله بتسليط البابليين عليهم فحسوا خلال الديار  
وأحرقوا الهيكل وما فيه من الأسفار وسبوا بقية السيف منهم وأجلوهم عن وطنهم إلى  
أرض من استعبدهم فدانوا لشريعة غير شريعتهم .

ولما أعادوهم إلى أوطانهم وكانوا قد فقدوا نصوص التوراة وحفظوا بعضها دون  
بعض — كتبوا ما حفظوا من شريعة الرب ممزوجا بما دانوا به من شريعة ملك  
بابل كما أمرهم كاهنهم عزرا (عزير) ثم هم بعد ذلك حرفوا وبدلوا ولم يقيموها كما  
أمروا ، والنصارى لم يحفظوا كل ما بلغهم عيسى عليه السلام من العقائد والوصايا  
والأحكام القليلة الناسخة لبعض أحكام التوراة الشديدة ، وذلك هو دين الله الحق .

وكتب كثير منهم تواريخ أودعوا فيها ما عرفوه من ذلك ومن غيره ، وجاءت  
الجامع الرسمية بعد ثلاثة قرون فاعتمدت أربعة أناجيل من نحو نيف وسبعين إنجيلا  
رفضتها وجعلتها غير قانونية .

وإلى ما تقدم فى أهل الملتين الإشارة بقوله « فَمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ  
وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ،

وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. وَفِي الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

ومن هذا النص يعلم أن كلا من اليهود والنصارى نسى حظا مما ذكروا به فيهم ، ولم يعملوا بالبعض الآخر ، فأكثر عباداتهم من وضع أحبارهم .  
ولقب - أهل الكتاب - والذين أوتوا الكتاب - وإن كان عاما - خص به اليهود والنصارى ، لأنهم هم الذين كانوا مخالطين ومجاورين للأمة العربية ومعروفين لديها كما قال تعالى مخاطبا مشركى العرب « أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ » .

( حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ) أى قاتلوا من ذكروا حين وجود ما يقتضى القتال كالأعداء عليكم أو على بلادكم أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم أو تهديد أمنكم وسلامتكم كما فعل بكم الروم وكان ذلك سببا لغزوة تبوك - إلى أن تأمنوا عدوانهم بإعطائكم الجزية بشرط أن تكون صادرة عن يد أى قدرة واسعة فلا يظلموا ولا يرهقوا ، وأن يخضعوا لسيادتكم وحكمكم ، وبذا يسهل السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام بما يشاهدون من عدلكم وفضائلكم التى يرونها رأى العين .  
فإن أسلموا عم الهدى والعدل ، وإن لم يسلموا وأعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم وإعطائهم حريتهم فى دينهم ومعاملتهم بالعدل والمساواة كالمسلمين « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .

ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون ، ويسمّون حينئذ أهل الذمة ، إذ كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله .

أما الذين يعقد بيننا وبينهم صلح بعهد وميثاق يعترف به الطرفان فيسمون المعاهدين أو أهل العهد .

وأول من سن الجزية كسرى أنوشروان ، قال أبو حنيفة الدينوري : إنه وظَّف الجزية على أربع طبقات ، وأسقطها عن أهل البيوتات والمرازمة والأساورة والكتاب ومن كان في خدمة الملك ، ولم يلزم أحدا لم تأت له عشرون سنة أو جاوز الخمسين .

وقد اقتدى به عمر بن الخطاب حين افتتح بلاد الفرس ولم يكن هو بأول واضع لها .

وهاك عهدا كتبه أحد قواد عمر بن الخطاب لرزبان وأهل دهستان :

« هذا كتاب من سويد بن مقرن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان ، إن لكم النمة وعلينا المنعة . على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم ، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضا عن جزائه ، ولكم الأمان على أنفسكم وأموالكم ومللكم وشرائعكم ولا يغير شيء من ذلك . شهد بذلك سواد بن قطبة وهدن بن عمر وسماك بن مخزومة وعتيبة بن النهاس .

وكتب عتبة بن فرقد أحد عمال عمر بن الخطاب قال : « هذا ما أعطى عتبة ابن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان سهلها وجبلها وحواشيتها وشفارها وأهل ملها كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وملهم وشرائعهم على أن يودوا الجزية على قدر طاقتهم ، ومن حشر منهم في سنة ( أرسل لميدان القتال ) وضع عنه جزاء تلك السنة ، ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك » .

والجزية التي وضعها عمر على الفقراء من أهل النمة اثنا عشر درهما ، وعلى الأوساط أربعة وعشرون ، وعلى أهل الثروة ثمانية وأربعون .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ،

ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ،

أَنِّي يُؤْفَكُونَ (٣٠) أَخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ  
وَالْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ ، وَمَا أُرْوُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى  
اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ  
بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) .

### شرح المفردات

عزيز: هو الذي يسميه أهل الكتاب عزراء، وينتهي نسبه إلى العازار بن هرون  
عليه السلام، ويضاهئون: أي يشابهون ويحاكون، وقاتلهم الله: جملة أصلها  
الدعاء ثم أكثر استعمالها حتى قيلت على وجه التعجب في الخير والشر وهم لا يريدون  
الدعاء، والإفك: صرف الشيء عن وجهه، يقال أفك فلان أي صرف عقله عن إدراك  
الحقائق، ورجل مأفوك العقل، والأحبار واحدهم حبر (بالفتح والكسر) وهو  
العالم من أهل الكتاب، والرهبان: واحدهم راهب، وهو لغة الخائف، وعند النصارى  
هو المنتبل المنقطع للعبادة، والإرادة: القصد إلى الشيء، وقد تطلق على ما يفضى إليه  
وإن لم يرد فاعله فيقال في الرجل المسرف المبذر: يريد أن يخرب بيته أي إن  
تبذيره يفضى إلى ذلك فكأنه يقصده، لأن فعله فعل من يقصد ذلك، ونور الله:  
هو دين الإسلام، وأظهره على الشيء: جملة فوقه مستعليا عليه.

### المعنى الجملي

بعد أن ذكر سبحانه في الآيات السالفة أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر  
على الوجه الصحيح - فقي على ذلك بشرح ذلك المجل في هذه الآيات، فنقل عنهم

أنهم أثبتوا لله ابنا، وهذا بمنزلة الشرك بالله فإن طرق الشرك مختلفة، وأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا يحرمون ويحللون، وأنهم يسعون في إبطال الإسلام وإخفاء الدلائل الدالة على صدق رسوله وصحة دينه .

## الإيضاح

(وقالت اليهود عزيز ابن الله) عزيز كاهن يهودى وكاتب شهير سكن بابل حوالى سنة ٤٥٧ ق م أسس المجمع الكبير وجمع أسفار الكتاب المقدس وأدخل الأحرف الكلدانية عوضا من العبرانية القديمة، وألف أسفار الأيام، وعزرا، ونحميا؛ وعلى الجملة فعصره هو ربيع الدين اليهودى، وهو جدير أن يكون ناشر الشريعة اليهودية، فقد أحيها بعد أن نسيت، ومن أجل هذا فاليهود يقدسونه حتى إن بعض يهود المدينة أطلق عليه لقب (ابن الله).

وإسناد هذا القول إليهم جملة وإن كان قد صدر من بعضهم - مبنى على أن الأمة تعد متكافلة في شئونها العامة، فما يفعله بعض الفرق أو الجماعات يكون له تأثير في جملتها، والنكر الذى يفعله بعضهم إذا لم ينكره عليه جمهورهم ويزيلوه يؤخذون به كلهم كما قال تعالى «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» .

وما مثل ذلك إلا مثل الأوبئة التى تحدث في الشعب بكثرة الأقدار وإهمال مراعاة القواعد الصحية - لا يعدى بها من تلبس بها فحسب، بل تنتشر العدوى في الشعب جميعه .

روى ابن إسحق وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنه قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس ابن قيس ومالك بن الصيف فقالوا : كيف ندبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله ؟

والمشهور عند المؤرخين حتى مؤرخى أهل الكتاب أن التوراة التى كتبها

مومى عليه السلام ووضعها في تابوت العهد أو بجانبه قد فقدت قبل عهد سليمان عليه السلام ، فإنه لما فتح التابوت في عهده لم يوجد فيه غير اللوحين اللذين كتبت فيهما الوصايا العشر كما جاء في سفر الملوك الأول ، وأن عزرا هو الذى كتب التوراة وغيرها بعد السبي بالحروف الكلدانية ممزوجة ببقايا اللغة العبرانية التى نسى اليهود معظمها ، ويقول أهل الكتاب إن عزرا كتبها كما كانت بوحي أو بإلهام من الله .

وخلاصة ما سلف — إن جميع أهل الكتاب يدينون لعزير في مستند دينهم وأصل كتبهم المقدسة عندهم ، وإن كان هذا المستند ضعيفا ، فقد جاء في ترجمة عزرا من دائرة المعارف البريطانية : إنه لم يُعد إليهم الشريعة التى أحرقت فحسب ، بل أعاد جميع الأسفار العبرية التى كانت أُتلفت وأعاد سبعين سفرا غير قانونية ( أبو كريف ) ثم قال كاتب الترجمة : وإذا كانت هذه الأسطورة الخاصة بعزرا هذا قد كتبها من كتبها من المؤرخين بأقلامهم من تلقاء أنفسهم ولم يستندوا في شيء منها إلى كتاب آخر ، فكتاب هذا العصر يرون أن أسطورة عزرا قد اختلقها أولئك الرواة اختلاقا اه .

(وقالت النصارى المسيح ابن الله) وهذا قول للقدماء منهم كان يراد به أنه المحبوب أو المكرم ، ثم سرت إليهم وثنية الهنود فاتفقت كلمتهم على أنه ابن الله حقيقة ، وعلى أن ابن الله بمعنى (الله) وبمعنى (روح القدس) إذ هذه الثلاثة عندهم واحد حقيقة ، وهذا تعليم الكنائس الذى قرره الجامع الرسمية بعد المسيح وتلاميذه بثلاثة قرون — وقد خالف في ذلك خلق كثير منهم يسمون الموحدين أو العقليين ، ولكن الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستنتية لا تعتدّ بنصرانيتهم ولا بدينهم .

وكلمة (ثالوث) تطلق عندهم على وجود أقانيم ثلاثة معا في اللاهوت تعرف بالآب والابن والروح القدس ، وهذا هو تعليم الكنيسة الكاثوليكية والشرقية والبروتستانتية وهو المطابق لنصوص الكتاب المقدس .

وعقيدة التثليث وألوهية المسيح مع مخالفتها للعقل ليس لهما أصل في كتب الأنبياء لا قطعى ولا ظنى ، وكتب العهد الجديد كذلك ليست نضا فيهما ؛ على أن هذه لا يوثق بها ، فإن النصارى قد أضعاعوا أكثر ما كتب من إنجيل المسيح في عصره ، ثم رفضت مجامعهم الرسمية بعد دخول التعاليم الوثنية فيهم من قبل الرومانيين أكثر ما وجد عندهم من الأناجيل التي كانت تعد بالعشرات واعتمدت أربعا منها فحسب ، وهذا مصداق قوله تعالى « وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ » .

(ذلك قولهم بأفواههم) أى هذا الذى قالوه فى عزيز والمسيح قول تلوكة الألسنة فى الأفواه ، لا يؤيده برهان ولا يتجاوز حركة اللسان ، بل البرهان دال على عكسه لاستحالة إثبات الولد لمن هو برىء عن الحاجة واتخاذ الصاحبة .

وفى معنى الآية قوله : « وَيَنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » .

(يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) أى يشابهون فيها قول الذين كفروا من قبلهم وهم مشركو العرب الذين قالوا مثل هذا القول ، إذ قالوا : الملائكة بنات الله . وقد علم من تاريخ قدماء الوثنيين فى الشرق والغرب أن عقيدة الابن لله والحلول والتثليث كانت معروفة عند البراهمة والبوذيين فى الهند والصين واليابان وقدماء الفرس والمصريين واليونان والرومانيين ، فبيان القرآن الكريم لهذه الحقيقة التى لم يكن أحد من العرب ولا من حولهم يعرفها - بل لم تظهر إلا فى هذا الزمان - معجزة من معجزاته الكثيرة التى تظهر على مر الزمان وتصدقها المشاهدة والعيان .

(قاتلهم الله) تعجب من شناعة قولهم ، وقد شاع استعمالها فى ذلك ، وتستعمل فى المدح أيضا فيقال : قاتله الله ما أفصحه ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أن المراد تعينهم الله .

(أنى يؤفكون؟) أى كيف يصرفون عن توحيد الله وتنزيهه ، وبه تجزم

العقول ، وبنَّه عن الله كل رسول - إلى قول لا يقبله عقل ، فما المسيح وعزير إلا مخلوقان من مخلوقات الله الذي خلق هذا الكون العظيم ودبر أمره ، ولا ينبغي لواحد من هذه المخلوقات أن يجعل خالقه ومدبر شئونه ولدا من جنسه ، مع علمه بأنه كان يأكل ويشرب ويتعب ويتألم « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ » .

ثم فصل قوله قبل يضاهائون قول الذين كفروا من قبل بقوله :

( اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم ) أى اتخذ كل من اليهود والنصارى رؤساء الدين فيهم أربابا ، فاليهود اتخذوا أبحارهم وهم علماء الدين أربابا بما أعطوهم من حق التشريع فيهم وإطاعتهم فيه ، والنصارى اتخذوا قساوستهم ورهبانهم : أى عبادهم الذين يخضع لهم العوام أربابا كذلك .

والرهبان عند النصارى أدنى طبقات رجال الدين ، فاتخاذهم أربابا يقتضى بالأولى أن يتخذوا من فوقهم من الأساقفة والمطارنة والبطاركة ، إذ الرهبان يخضعون لتشريع هؤلاء الرؤساء مدونا كان أو غير مدون ، والعوام يخضعون لتشريع الرهبان ولو غير مدون ، سواء قالوه تبعاً لمن فوقهم أو من تلقاء أنفسهم لتقديسهم بلديتهم .

وانفرد النصارى باتخاذهم المسيح ربا وإلها يعبدونه ، ومنهم من يعبد أمه عبادة حقيقية ويصرحون بذلك ، وجميع الكاثوليك والأرثوذكس يعبدون تلاميذه ورسله وغيرهم من القديسين فى عرفهم ، ويتوسلون بهم ، ويتخذون لهم الصور والتماثيل فى كنائسهم ، ولكنهم لا يسمون هذا عبادة .

واليهود لم يقتصرُوا فى دينهم على أحكام التوراة ، بل أضفوا إليها من الشرائع ما سمعوه من رؤسائهم من قبل أن يدوتوه فى أمشنة والتلمود ، ثم دونوه فكان هو الشرع العام وعليه العمل عندهم .

والنصارى غير رؤسائهم جميع أحكام التوراة الدينية والدينية واستبدلوا بها شرائع أخرى فى العبادات والمعاملات جميعا ، وزادوا حق مغفرة الذنوب لمن شاءوا

وخرمان من شاءوا من رحمة الله وملكوته ، والله يقول : « وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ؟ » وزادوا القول بعصمة البابا في تفسير الكتب الإلهية ، ووجوب طاعته في كل ما يأمر به من الطاعات ، وينهى عنه من الحرمات .

روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فر إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله عليها وأعطائها فرجعت إلى أخيها ورغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم عدى المدينة وكان رئيسا في قومه طيء ( وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ) فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ ( اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ) قال فقلت : إنهم لم يعبدوه فقال : ( بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم ) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عدى ماتقول ؟ أضررك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئا أكبر من الله ؟ ما يضررك ؟ أضررك أن يقال لا إله إلا الله ، فهل تعلم إلها غير الله ؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق ، قال فلقد رأيت وجهه أستبشر ، ثم قال : إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون .

( وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ) أى اتخذوا رؤساءهم أربابا من دون الله ، والرؤية تستلزم الألوهية ، إذ الرب هو الذى يجب أن يعبد وحده ، والحال أنهم ما أمروا على لسان موسى وعيسى ومن اتبعهما فيما جاء به من عند الله ، إلا أن يعبدوا ، ويطيعوا فى الدين إلها واحدا بما شرعه لهم وهو ربهم ورب كل شيء ومليكه .

ثم علل الأمر بعبادة إله واحد فقال :

( لا إله إلا هو ) أى لا إله غيره فى حكم الشرع وفى نظر العقل ، وإنما اتخذ المشركون آلهة من دونه بالرأى والهوى جهلا بصفات الألوهية ، إذ ظنوا أن لبعض

المخلوقات سلطانا غيبيا وقدرة على الضر والنفع من غير طريق الأسباب المسخرة  
للمخلق مثل ما لله إما بالذات وإما بالوساطة والشفاعة لديه .

( سبحانه عما يشركون ) أى تنزيها له عن شركهم فى ألوهيته بدعاء غيره معه

أو من دونه ، وفى ربوبيته بطاعة الرؤساء فى التشريع الدينى بدون إذنه .

وأمره تعالى بعبادته وحده على لسان موسى عليه السلام جاء فى مواضع من  
التوراة ، منها أول الوصايا العشر التى جاءت فى سفر الخروج ( أنا الرب إلهك الذى  
أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ، لا يكن لك آلهة أخرى أمامى ،  
لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورةا مما فى السماء من فوق ولا مما فى الأرض من تحت ،  
ولا مما فى الماء تحت الأرض ، لا تسجد لهم ، ولا تعبدهن ، لأنى أنا الرب إلهك  
له غيور ) الخ .

وأمره تعالى بعبادته على لسان عيسى كثير أيضا ، من ذلك ما رواه يوحنا فى إنجيله  
( وهذه الحياة الأبدية أنت تعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح  
الذى أرسلته ) .

( يريدون أن يظنوا نور الله بأفواههم ) أى يريد اليهود والنصارى أن يظنوا  
نور الله وهو دين الإسلام الذى أرسل به جميع رسله ، وأفاضه على البشر بما أوحاه  
على موسى وعيسى وغيرهما من رسله ، وأئمه وأكمله ببعثة خاتم النبيين محمد صلى الله  
عليه وسلم - بالظن فى الإسلام والصد عنه بالباطل بمثل تلك الأقوال فى عزيز  
والمسيح ، وبما ابتدعه لهم الرؤساء من التشريع حتى صار التوحيد الذى أمروا به هو  
محض الشرك عندهم ، وصار المربوب ربا على تفاوت بين فرقهم فى ذلك .

وهكذا عادى أهل الكتاب الإسلام منذ البعثة الحمديّة ، وقصدوا إبطاله  
والقضاء عليه بالحرب والقتال من ناحية ، وبالظن وإفساد العقائد من ناحية أخرى ،  
وكل من الأمرين أرادوه لإطفاء نوره .

( ويأبى الله إلا أن يتم نوره ) ببعثة محمد خاتم النبيين الذى أرسله إلى الخلق أجمعين

وجعل آيته الكبرى وهي القرآن عامية عقلية وكفل حفظها إلى آخر الزمان ، وبين لهم فيه ما يحتاجون إليه من عقائد يؤيدها البرهان ، وتبطل بها عبادة الإنسان للإنسان ، فضلا عن الأصنام والأوثان ، وعبادات تنزكي بها النفس وتطهر من كل رجس ، وتجعل كفاية الأغنياء للفقراء حقوقا إلهية ويبطل ثوابها المن والأذى ، وآداب تطبع في الأنفس الفضائل ، وتشريع يجمع بين الرحمة والعدل والمساواة بين جميع الناس في الحق .

وخلاصة ما سلف — إنهم يريدون أن يطفئوا نور الله الذي شرعه لهداية عبادة وركنه الركين ، وأساسه اللتين توحيد الربوبية والألوهية ، فتحوّلوا عنه إلى الشرك والوثنية ، والله لا يريد إلا أن يتم هذا النور الذي هو كنور القمر فيجعله بدرًا كاملا يعم نوره الأرض كلها .

(ولو كره الكافرون) ذلك بعد تمامه ، كما كانوا يكرهونه من قبل حين بدء ظهوره ، فهم يكيدون له ويفترون عليه ويظعنون فيه ، وفيمن جاء به ويحاولون إخفائه . أما اليهود فكانوا في أول الإسلام أشد الناس عداوة لأهله ، فهم في ذلك كمشركي العرب سواء .

ولما عجزوا عن إطفاء نوره بمساعدة المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم قصدوا إطفاء نوره بيث البدع فيه وتفريق كلمة أهله كما فعل عبد الله بن سبأ من ابتداع التشيع لعلي كرم الله وجهه والغلو في ذلك وإلقاء الشقاق بين المسلمين ، ثم في الفتنة بين علي ومعاوية ، ولولا ذلك لما قتل أولئك الألوفا من صناديد المسلمين ، ثم ما كان من مناقبيهم من الإسرائيليات الكاذبة التي لا تزال مبثوثة في تضاعيف كتب التفسير والحديث والتاريخ .

وأما النصارى فقد كان الحبشة منهم أول من أظهر المودة لهم ، وأكرم النجاشي من لجأ إليه من مهاجريهم ، ومنعهم من تعدى المشركين عليهم ، ثم انقلب الأمر بعد انتشار الإسلام وراء جزيرة العرب ، فتوود اليهود للمسلمين لأنهم أنقذوهم من

ظلم النصارى واستعبادهم ، وصار نصارى أوربة المستعمرون للممالك الشرقية هم الذين يقاتلون المسلمين ويعادونهم دون نصارى هذه البلاد ، لأنهم رأوا من عدل المسلمين ما فضلوهم به على الروم الذين كانوا يظلمونهم ويحتقرونهم - إلى أن جاءت الحروب الصليبية فعلا نصارى أوربا في عداوة المسلمين ، ولا يزال الأمر كذلك في هذا العصر كما هو مشاهد معروف .

ثم بين إتمام نور الله فقال :

( هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ) أى إنه تعالى كفل إتمام هذا النور بإرسال رسوله الأكمل بالهدى والدين الحق الذى لا يغيره دين آخر ولا يبطله شىء آخر .

ثم ذكر الغاية من إرسال محمد خاتم النبيين بدين الحق فقال :

( ليظهره على الدين كله ) أى ليعلى هذا الدين ويرفع شأنه على جميع الأديان بالحجة والبرهان ، والهداية والعرفان ، والسيادة والسلطان ، ولم يكن لدين من الأديان مثل ما للإسلام من التأثير الروحي والعقلي والمادى والاجتماعى والسياسى .

روى أحمد عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا عدى أسلمت سلم ، قلت إني من أهل دين ، قال أنا أعلم بدينك منك ، فقلت أنت أعلم بدينى منى ؟ قال نعم . ألسنت من الرّكوسية (دين بين الصابئة والنصرانية) وأنت تأكل مرباع قومك ( والمرباع ما كان يأخذه رئيس القوم من الغنائم وهو من عادات الجاهلية ) قلت بلى (قال فإن هذا لايجل لك في دينك ) قال فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ، قال : أما إني أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام .. تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له وقد رمتهم العرب ، أتعرف الخيرة ؟ قلت لم أرها ولكن سمعت بها . قال فوالذى نفسى بيده ليطمن الله هذا الدين حتى تخرج الطعينة من الخيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى

ابن هرمز . قلت كسرى بن هرمز؟ قال نعم كسرى بن هرمز ، وليبدان المال حتى لا يقبله أحد» .

قال عدى : فهذه الظعينة تخرج من الخيرة فتطوف بالبیت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسى بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالها .

(ولو كره المشركون) ذلك الإظهار ، وقد وصفهم بالشرك بعد أن وصفهم بالكفر للدلالة على أنهم جمعوا بين الكفر بالرسول وتكذيبه ، والشرك بالله .

وفي الجملتين إخبار بأن إتمام الله لدينه وإظهاره على جميع الأديان سيكون بالرغم من جميع الكفار المشركين منهم وغير المشركين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ  
أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ  
وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُوهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ  
يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ،  
هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تُفْسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) .

### شرح المفردات

أكل الأموال : يراد به أخذها والتصرف فيها بسائر وجوه الانتفاع ، والصدق المنع ، وسبيل الله : هي طريق معرفته الصحيحة وعبادته التوحيمة ، وأساس ذلك التوحيد والتنزيه ، والكنز هنا : خزن الدينار والدرهم في الصناديق ، أو دفنها في التراب مع الامتناع عن الإنفاق فيما شرعه الله من البر والخير ، ويحصى عليها : أى تضمم عليها النار الحامية حتى تصير مثلها .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فى الآيات السالفة أن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، وأنهم ما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا فعبدوا غيره من دونه - قفى على ذلك بذكر سيرة جمهرة هؤلاء الرؤساء الدينيين فى معاملاتهم مع الناس ليعرف المسلمون حقيقة أحوالهم والدواعى التى تحملهم على إطفاء نور الله ، يبيان أن أكثرهم عباد شهوات وأرباب أهواء وذوو أطماع وحرص على أخذ أموال الناس بالباطل ، وأنه ما حملهم على مقاومة الإسلام إلا خوف ضياع تلك اللذات ، وفوات تلك الشهوات .

ثم أوعد الباخلين الذين يكتنون الذهب والفضة فى صناديقهم ولا ينفقونها فى سبيل البر والخير - بالمعذاب الأليم فى نار جهنم يوم يحمى على تلك الأموال المكفوزة فتصير كالنار التى تهابى ثم تكوى بها الجباه والجنوب والظهور ويقال لهم : هذا جزاء صنيعكم فى الدنيا منعتموه البائس الفقير لتمتعوا به فكان جزاؤكم أن صار وبالاً عليكم وميسما تكتونون به على جنوبكم وظهوركم فلم تنتفعوا به فى دين ولا دنيا .

## الإيضاح

( يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ) أى إن كثيرا من الأحبار والرهبان أشربت قلوبهم حب المال والجاه ، فمن أجل حب الأول أكلوا أموال الناس بالباطل ، ومن أجل حب الثانى صدوا عن سبيل الله ، فإنهم لو أقروا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وصحة دينه لزمهم أن يتابعوه فيبطل حكمهم وتزول حرمتهم ، ومن ثم كانوا يبالبغون فى المنع من متابعتهم وصد الناس عنه .

وأكل الأموال بالباطل : أخذها بغير حق شرعى ويقع ذلك على صور مختلفة منها :

(١) أخذها رشوة لأجل الحكم أو المساعدة على إبطال حق أو إحقاق باطل ويقوم به صاحب السلطة الدينية أو المدنية ، رسمية كانت أو غير رسمية .

(٢) أخذها بالربا وهو فاش عند اليهود ، ومنه ما يحله لهم رجال الدين ، وإن كانوا يجرمونهم في الفتوى وكتب التشريع ، وأخبارهم يفتونهم بأكل الربا من غير الإسرائيليين ويأكلونه معهم مستحلين له بنص توراتهم الحرفية بدلا من نهيمهم عنه وهو ( لا تقرض أخاك ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء مما يقرض ربا ، للأجنبي تقرض ربا ، ولكن لأخيك لا تقرضه ربا لكي يباركك الرب إلهك في كل ما تمتد إليه يدك في الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها ) .

وكذلك عند النصارى ، وقد وضع لهم الأساقفة أحكاما للربا والقروض فيما يسمونه اللاهوت الأدبي ، فأباحوا فيه بعض الربا دون بعض .

(٣) أخذ سدنة قبور الأنبياء والصالحين والمعابد التي بنيت بأسمائهم - هدايا ونذورا ، والوقف على الدير أو الكنيسة قرية عندهم كالوقف على المسجد عندنا ، فأخذ المال وإعطاؤه لبناء المعابد مشروع في كل دين ، لكن البدعة الوثنية أن يوضع في المعبد قبر أو صورة أو تمثال يدعى فيه صاحبه مع الله تارة ومن دونه أخرى ، وينذر له وحده حيناً ومع الله آخر ، فهذه بدع تنبأ منها أديان الأنبياء جميعا ، والنفقة فيها من الباطل ، وآكلوها من رؤساء الدين وسدنة المعابد من الذين يأكلون أموال الناس بالباطل .

(٤) بذلها لمن يعتقدون فيهم الصلاح والزهد في الدنيا ليدعوا لهم ويشفعوا عند الله في قضاء حاجاتهم وشفاء مرضاهم ، اعتقاداً منهم أن الله يستجيب دعاءهم ولا يرد شفاعتهم ، أو لظنهم أن الله قد أعطاهم تصرفاً في الكون يقضون به الحاجات من دفع

الضر عين شاءوا وجلب الخير لمن أحبوا ، وتأولها لهم الرؤساء الدينيون الضالون وقالوا إنها لاتنافى التوحيد الذى جاء به الرسل .

(٥) أخذها جُفلا على مغفرة الذنوب ، ويتوسلون إلى ذلك بما يسمونه سر الاعتراف ، فيأتى الرجل أو المرأة لدى القسيس أو الراهب الذى يأذن له الرئيس الأكبر بسماع أسرار الاعتراف ومغفرة الذنوب ، فيخلو به أو بها فيقص عليه الخاطيء ما عمل من الفواحش والمنكرات بأنواعها لأجل أن يغفرها له ، وهم يعتقدون أن ما يغفره هؤلاء يغفره الله .

وهذا الجعل يتفاوت بتفاوت ثروة المشترين من الملوك والأمراء وكبار الأغنياء فمن دونهم ، ويعطون بالمغفرة صكوكا يحملونها ليلقوا بها الله تعالى .  
وتلك الطقوس خاصة بالأرثوذكس والكاثوليك ، وكان هذا من الأسباب التى أدت إلى الانقلاب الكبير الذى يسمونه الإصلاح ( البروتستانت ) إذ ترتب على هذه العقيدة فساد كبير فى استباحة الفواحش والمعاصى ، وقد كان الاعتراف أولا بلائمين ، ولكن رجال الدين جعلوه وسيلة لسلب الأموال والغنى بغير وجه صحيح .

(٦) أخذهم للأموال على فتاوى لتحليل الحرام وتحريم الحلال إرضاء لشهوات الملوك وكبار الأغنياء ، أو الانتقام من أعدائهم ، أو لظلم رعاياهم ، فهم يعملون ضروبا من الحيل والتأويلات يصورون بها الوقائع بغير صورها ومن ثم خاطب الله أحبار اليهود خطاب احتجاج وتوبيخ بقوله : « قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْمَعُونَ قِرَاطِينَ تُبَدُّونَهَا وَتُحْفُونَ كَثِيرًا وَعَالِمَةٌ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ » .

(٧) أخذها من أموال مخالفيهم فى الجنس أو الدين خيانة وسرقة ونحو ذلك كما قال تعالى « وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ

مَنْ إِنْ تَأَمَّنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

وفي سرد ما خالف اليهود فيه الحق وادعوا أنه مشروع لهم يقول البوصيري :

وبأن أموال الطوائف حُلَّتْ لهم ربا وخيانة وغلو

وصدحهم عن سبيل الله هو منعهم الناس عن معرفة الله معرفة صحيحة ، وعبادته على الوجه الذي يرضيه ، ولا عجب فهم مشركون غير موحدين كما علمت مما سلف ، فهم لا يعبدون الله بما شرعه الله ، بل بما شرعه البشر ، واليهود قد كفروا بالمسيح وهو المصلح الأكبر في شريعتهم ، والنصارى يعبدون المسيح وأمه والقديسين ، وجل عبادتهم من صلاة وصيام لم تكن في عهد المسيح .

ومن أنسكى طرقتهم في الصد الطعن في النبي الأعظم والكتاب الكريم ، وإفسادهم عقائد النشء في المدارس التي يتعلمون فيها ، ولا يخفى ما لذلك من سوء الأثر في الدين والأخلاق والاجتماع .

( والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ) أى وكل من يكنز الذهب والفضة ، ولا يخرج منها الحقوق الواجبة ، سواء أكان من الأحرار والرهبان أم كان من المسلمين ، ويؤيد هذا أن يزيد بن وهب قال : مررت بأبي ذر بالربذة ( موضع بين مكة والمدينة ) فقلت يا أبا ذر ما أنزلك هذه البلاد ، فقال : كنت بالشام فقراءت : ( والذين يكنزون الذهب والفضة ) فقال معاوية هذه الآية نزلت في أهل الكتاب ، فقلت إنها فينا وفيهم ، فصار ذلك سببا للوحشة بيني وبينه ، فكتب إلى عثمان أن أقبل إلى ، فلما قدمت المدينة انحرف الناس عنى كأنهم لم يرونى من قبل ، فشكوت ذلك إلى عثمان ، فقال لى تنح قريبا ، فقلت إني والله لن أدع ما كنت أقول .

ومعنى قوله : ولا ينفقونها في سبيل الله أى ولا يؤدون زكاتها ، فقد أخرج مالك والشافعى عن ابن عمر قال : ما أدى زكاته فليس يكنز وإن كان تحت سبع

أرضين ، ومالم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان ظاهرا ، وأخرج ابن عدى والخطيب عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى مال أديت زكاته فليس بكنز » وأخرج ابن أبى شيبه وأبو داود والحاكم عن ابن عباس قال : « لما نزلت هذه الآية (والذين يكتزون الذهب والنفضة) كبر ذلك على المسلمين وقالوا ما يستطيع أحد منا ألا يبقى لولده مالا بعده ، فقال عمر : أنا أفرج عنكم فانطلق وتبعه ثوبان فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية فقال : إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض المواريث عن أموال تبقى بعدكم ، فكبر عمر رضى الله عنه ثم قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ألا أخبرك بخير ما يكتنز؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها الرجل سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته . »

( يوم يحمى عليها فى نار جهنم ) أى أخبرهم بعذاب الأليم يصيبهم فى ذلك اليوم الذى يحمى فيه على تلك الأموال المكنوزة فى نار جهنم ، أى بأن توضع وتضمم عليها النار الحامية حتى تصير مثلها .

وفى الآية إيماء إلى أنه يحمى عليها بأعيانها ، والله قادر على إعادتها ، وأمور الآخرة من عالم الغيب فلان ندرك كتبها ولاصفتها ، فنفوض الأمر فيها إلى عالم الغيب ، وعلمنا الاعتبار بما فيها من إصلاح النفس وتهذيب الأخلاق .

روى مسلم عن أبى هريرة مرفوعا « ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره » وروى عنه « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاع ( ذكر الحيات ) أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة فيأخذ بهن منتهيه ( العظمان الناتئان تحت الأذنين ) يقول : أنا مالك أنا كنتك ، ثم تلا صلى الله عليه وسلم ( سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ) » .

( فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ) وخصت هذه الأعضاء دون بقية الجسد ، لأنهم بالوجوه يستقبلون الناس وأسارىهم منبسطة غبطة لعظم الثروة ،

ويستقبلون الفقراء ، ووجودهم منقبضة من العبوس ، لينفروا ويحجموا عن السؤال ، ولأن الجنوب والظهور كانوا يتقبلون بها على سرر النعمة اضطجاعا واستلقاء ويعرضون بها عن لقاء المساكين وطلاب الحاجات ، فلا يكون لهم في جهنم استراحة فيما سوى الوقوف إلا بالانكباب على الوجوه كما قال : « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » .

( هذا ما كنزتم لأنفسكم ) أى تقول لهم ملائكة العذاب الذين يتولون كيهم : هذا ما كنزتم لمنفعة أنفسكم فكان سبب مضرتها وتعذيبها ، أو هذا الليمس الذى تكونون به هو المال الذى كنزتموه لأنفسكم لتنفردوا بالتمتع به .  
( فذوقوا ما كنتم تكنزون ) أى فذوقوا وبال كنزكم له وإمساكم إياه عن النفقة فى سبيل الله .

وخالصة هذا — إن ما كنتم تظنونونه من منفعة كنزه لأنفسكم لا يشاركم فيها أحد ، قد كان لكم ضرا وعليكم ضداً ، فقد صار فى الدنيا لغيركم ، وعذابه فى الآخرة لأحقابكم .

وإن من أكبر أسباب الضعف الظاهر الذى نراه فى المسلمين عامة حتى تمكن أعداؤهم من سلب ملكهم ويحاولون صدّهم عن دينهم — بخل أغنيائهم ، إذ لو وجهوا همهم لإنشاء المدارس والمصانع والمعامل لتعليم النشء العلوم الدينية والدنيوية من فنون الحرب وصنع الأسلحة لأمكنهم أن يُخرجوا للأمة رجالاً يحفظون الدين والملك ويعيدون إليها مجدها الزائل ، ويجذبون المعتدين عليها إلى الإسلام ويدخلونهم فيه أفواجا أفواجا .

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ ، فَلَا تَطْلُوهُ

فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَأَعْلَمُوا  
 أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا ، يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا  
 مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)

### شرح المفردات

الشهور: واحدها شهر، وهو اسم للهلال سميت به الأيام، والكتاب: هو اللوح  
 المحفوظ كما قال: «عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي . فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى» . والحرم:  
 واحدها حرام: من الحرمة بمعنى التعظيم، والدين: الشرع، والقيم: أى الصحيح  
 المستقيم الذى لا عوج فيه، وكافة: أى جميعا، والنسيء من نسا الشيء ينسؤه نسا  
 ومنسأة: إذا أخره، أى الشهر الذى أنسى تحريمه: أى أخر عن موضعه .

### المعنى الجملى

هذه الآيات عود على بدء إلى الكلام فى أحوال المشركين، وقد كان الكلام  
 فى قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية - من قبيل الاستطراد اقتضاه ما قبله، وهو  
 حكم قتال المشركين ومعاملتهم .

### الإيضاح

( إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات  
 والأرض ) أى إن مبلغ عدة الشهور اثنا عشر شهرا فيما كتبه الله وأثبتته من نظام  
 سير القمر وتقديره منازل منذ خلق السموات والأرض على هذا الوضع المعروف لنا من  
 ثليل ونهار إلى الآن .

والمراد بقوله : يوم خلق السموات والأرض ، الوقت الذى خلقهما فيه باعتبار تمامه ونهايته فى جملة وهو ستة أيام من أيام التكوين باعتبار تفصيله وخلق كل منهما وما فيها .

وقوله : فى كتاب الله ، أى فى نظام الخلق والتقدير والسنن الإلهية فيه ، أوفى حكمه التشريعى كحرمة الأشهر الحرم ، وكون الحج أشهراً معلوماً ، وكون ما يتعلق بالشهور من الفرائض والسنن : كالحج والصيام وعدة المطلقات والرضاع ، فالعبر فيه الأشهر القمرية ، ومن حكمة ذلك أنه يجعل الصيام والحج يدور فى جميع أجزاء السنة ، ومنها ما يشق فيه أداؤها ومنها ما يسهل فيه ذلك .

( منها أربعة حرم ) أى منها أربعة فرض الله احترامها وحرّم فيها القتال على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ونقلت العرب ذلك عنهما بالتواتر القولى والعملى وإن كانت قد أخذت بذلك أحياناً اتباعاً لأهوائها ، وهذه الأشهر منها ثلاثة متواليات ، وهى ذوالقعدة وذو الحجة والحرم ، وواحد فرد وهو رجب .

روى أحمد عن أبي بكر أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب فى حجة الوداع بمنى فى أوسط أيام التشريق قال : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم متواليات ذوالقعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان ، ثم قال : ألا أى يوم هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس يوم النحر ، قلنا بلى . ثم قال : أى شهر هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، ثم قال : أليس ذوالحجة ؟ قلنا بلى ، ثم قال : أى بلد هذا ، قلنا الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليست البلدة ؟ قلنا بلى . قال فإن دماءكم وأموالكم - وأحسبه قال - وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، وستلقون ربكم فى أعمالكم ؛ ألا لاترجعوا بعدى ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ؛ ألا هل بلغت ؟ ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فاعلم من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه » .

( ذلك الدين القيم ) أى ما ذكر من عدة الشهور وتقسيمها إلى حرم وغيرها وعدد الحرم منها - هو الحق الذى يدان الله تعالى به دون النسيء .

وقد يكون المعنى - ذلك هو الشرع الصحيح الذى كان عليه إبراهيم وإسماعيل فى الحج وغيره ، وما يتعلق بالأشهر من الأحكام ، وقد تمسكت العرب به وراثه منهما حتى إن الرجل يلقى فيها قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له بسوء على شدتهم فى أخذ الثأر وضراوتهم بسفك الدماء .

( فلا تظالموا فيهن أنفسكم ) أى فلا تظالموا فى الأشهر الحرم أنفسكم باستحلال حرامها ، فإن الله عظمها وعظم حرمتها .

وقد خص بعض الأزمنة وبعض الأمكنة بأحكام من العبادات تقتضى ترك الحرمات فيها تنشيطا للنفوس على زيادة العناية بما يزيكها ويطهرها ، فقد جرت عادة الإنسان أن يسأم الاستمرار على حال واحدة تشق عليه ، ومن ثم جعل الله العبادات الدائمة خفيفة لامتقنة فى أدائها كالصلوات الخمس ، وخص يوم الجمعة بوجوب الاجتماع العام لصلوة ركعتين وسماع خطبتين تذكيرا وموعظة حسنة تقوى فى المؤمن حب الخير والتعاون على البر والتقوى ، وخص رمضان بوجوب صيامه فى كل سنة ، وخص أياما معدودات من ذى الحجة بأداء مناسك الحج ، وجعل ما قبلها وما بعدها من الأيام الحرم استعدادا للسفر لأداء النسك ، وحرّم مكة وما حولها فى جميع السنة لتأمين الحج والعمرة التى تؤدى فى كل وقت ، وحرّم رجب فى وسط السنة لتقليل شرو القتال وتخفيف أوزاره ولتسهيل السفر لأداء العمرة فيه .

( وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ) أى قاتلوهم جميعا وكونوا يدا واحدة على دفع عدوانهم وكف أذاهم كما يقاتلونكم كذلك ، ذاك أنهم إنما يقاتلونكم لدينكم وإطفاء نوره لا للانتقام ولا للعصية ولا لكسب المال كما هو دأبهم فى قتال قوينهم لضعيفهم ، فأنتم حينئذ أجدر وأولى بالاتحاد لدفع العدوان وجعل كلمة الله هى العليا ، وكلمة الشيطان هى السفلى ، والله عزيز حكيم .

(واعلموا أن الله مع المتقين) بنصرهم ومعوتهم وتوفيقهم لما فيه خيرهم وصلاحهم، فمن يتقى الظلم والعدوان في الأرض وأسباب الغشل والخذلان في القتال من تفرق الكلمة واختلاف الأهواء ومخالفة سنن الله في الاجتماع - يكن الله معه، ومن كان الله معه فلا يغلبه أحد .

(إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله) المراد بالنسيء تأخير حرمة شهر إلى آخر .

بيان هذا أن العرب ورثت من ملة إبراهيم وإسماعيل تحريم القتال في الأشهر الحرم لتأمين الحج وطرقه، ولما طال عليهم الأمد غيروا وبدلوا في المناسك وفي تحريم الأشهر ولاسيما الحرم، إذ كان يشق عليهم ترك القتال وشن الغارات ثلاثة أشهر متواليات، فأحلوا شهر الحرم وأنسئوا تحريمه إلى صفر لتبقى الأشهر الحرم أربعة كما كانت، وفي ذلك مخالفة للنص وحكمة التحريم .

وقد كان من عاداتهم في ذلك أن يقوم رجل من كنانة في أيام منى حيث يجتمع الحجيج فيقول: أنا الذي لا يرد لي قضاء، فيقولون صدقت، فأخر عنا حرمة الحرم واجعلها في صفر، فيحل لهم الحرم، وبذلك يجعل الشهر الحرام حلالا، ثم صاروا ينسئون غير الحرم ويسمون النسيء باسم الأصل، فتتغير أسماء الشهور كلها .

وبذلك يعلم أن النسيء تشريع ديني ملتزم غيروا به ملة إبراهيم اتباعا للهوى وسوء التأويل، ومن ثم سماه الله زيادة في الكفر، أي إنه كفر بشرع دين لم يأذن به الله زائد على شركهم بالله وكفرهم به، إذ حق التشريع له وحده، فنارعتة في ذلك شرك في ربوبيته، وهم يضلون به سائر الكفار الذين يتبعونهم فيه ويظنون أنهم لم يخرجوا به عن ملة إبراهيم، إذ واطئوا عدة ما حرم الله من الشهور في ملته ولم يزيدوا ولم ينقصوا وإن قدّموا وأخروا مع أن المقصد في ذلك العدد والتخصيص لا مجرد العدد، وإذ لم يفعلوا ذلك فقد استحلوا ما حرم الله .

( زين لهم سوء أعمالهم ) أى زين لهم الشيطان أعمالهم بهذه الشبهة الباطلة ،  
 إذا كثفوا بالعدد ولم ينقصوا منه شيئاً ولم يدركوا حكمة التخصيص بالأشهر المعينة .  
 ( والله لا يهدى القوم الكافرين ) إلى الحكمة فى أحكام شرعه وجعلها مبنية  
 على مصالح الناس فى دينهم ودنياهم أفراداً وجماعات ، فالهداية الموصلة إلى سعادة  
 الدارين من آثار الإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا  
 الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ » .  
 وأما الكافرون فيتبعون أهواءهم وما يوسوس لهم به الشيطان فيوقعهم فى الشقاء  
 والخسران .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ؟ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ  
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا  
 وَيَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)  
 إِلَّا تَمْضَرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا  
 فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ  
 عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ  
 اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) .

### شرح المفردات

النفرة والنفور : الفرار من الشيء أو الإقدام عليه بحفة ونشاط ، يقال نفرت الدابة  
 والغزال نفورا ، ونفر الحجيج من عرفات نفرا ، واستنفر الملك العسكر إلى القتال ،

وأعلن النفير العام فنفروا خفافا وثقلا ، والنشاقل : التباطؤ ، وهو من الثقل المقتضى للبطء ، والمتاع : ما يتمتع به من لذات الدنيا ، والغار : النقب العظيم في الجبل والمراد به هنا غار جبل ثور ، والصاحب : هو أبو بكر رضى الله عنه ، والسكينة : سكون النفس واطمئنانها وهو ضد الانزعاج والاضطراب ، وكلمة الله : هى التوحيد ، وكلمة الذين كفروا : هى الشرك والكفر .

### المعنى الجملى

الكلام من هنا إلى آخر السورة كلام فى غزوة تبوك وما لابسها من هتك ستر المنافقين وضعفاء الإيمان وتطهير قلوب المؤمنين من عوامل الشقاق ، إلا آيتين جاءتا فى آخرها وإلا ما جاء فى أثنائها من بعض الحكم والأحكام جرى على سنة القرآن فى أسلوبه الذى اختص به .

ومناسبة الآيات لما قبلها أن الكلام السابق كان فى حكم القتال مع اليهود وبيان حقيقة أحوالهم من خروجهم من هداية الدين فى العقائد والأعمال والفضائل التى تهذب النفوس وتزكياها ، والكلام هنا فى غزوة تبوك والمراد بها قتال الروم وأتباعهم من عرب الشام وجميعهم نصارى ، وبهذا استبان ارتباط الآيات بما قبلها .

وتبوك موضع فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق ، فهى تبعد عن الأولى ٦١٠ ك وعن الثانية ٦٩٢ ك وكان السبب فى هذه الغزوة ما بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة - من أن الروم جمعت جموعا معهم نخم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب حتى وصلت طلائعهم إلى البلقاء بإمرة قائد عظيم منهم يدعى قباد وعدد جنده أربعمائة ألفا ، فندب النبي صلى الله عليه وسلم الناس للخروج لقتالهم وأعلمهم الجهة التى يغزونها .

وكان عثمان قد جهز عيرا إلى الشام للتجارة ، فقال يا رسول الله : هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتا أوقية ( من الفضة ) فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يضر

عثمان ماعمل بعدها» ثم خرج لمقابلتهم ، ولما لم يجد من يقائله عاد ولم يهاجم شيئا من بلاد الشام ، وكان ذلك في رجب سنة تسع .

## الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اناقلتم إلى الأرض)؟  
الخطاب للمؤمنين في جملتهم تربية لهم بما لعله وقع من منافقيهم وضعفائهم - أي يأيها الذين آمنوا ما الذي عرض لكم مما يخجل بالإيمان أو بكاله من الثاقل والتباطؤ عن النهوض بما طلب منكم ، وإخلاصكم إلى الراحة واللذة ، حين قال لكم الرسول انفروا في سبيل الله لقتال الروم الذين تمجذوا لقتالكم والقضاء على دينكم الحق الذي هو سبيل سعادتكم ؟ .

فآية صدق الإيمان بذل النفس والمال في سبيل الله كما قال : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » .

وكان من أسباب ثقافتهم أمور :

- (أ) إن الزمن كان وقت حر شديد .
- (ب) إنهم كانوا قريبي عهد بالرجوع من غزوات الطائف وحنين .
- (ج) إنهم كانوا في عسرة شديدة وجهد جهيد من قلة الطعام .
- (د) إن موسم الرطب بالمدينة قد تم صلاحه ، وأن وقت تطف الحر ، لأن رجبا وافق أكتوبر في تلك السنة .

روى ابن جرير عن مجاهد قال : أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وبعده حنين وبعده الطائف ، أمروا بالنفير في الصيف حين اخترفت النخل ( اجتنى ثمرها ) وطابت الثمار واشتهوا الظلال وشق عليهم الخرج ... فقالوا منا الثقيل وذو الحاجة والضيعة والشغل والمنتشر به أمره في ذلك كله .

وكان من دأب النبي صلى الله عليه وسلم إذا خرج إلى غزوة أن يورى بغيرها لما تقتضيه المصلحة من الكتمان إلا في هذه الغزوة فقد صرح بها ليكون الناس على بصيرة لبعد الشقة وقلة الزاد والظهير .

وكانت حكمة الله في إخراجهم - وهو يعلم أنهم لا يلبثون فيها قتالا - تمحيص المؤمنين وخزي المنافقين وفضيحتهم فيما كانوا يسرون من الكفر وتربص الدوائر بالمؤمنين .

( أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ) أى أرضيتم بلذات الدنيا الناقصة الفانية بدلا من سعادة الآخرة الكاملة الباقية ؟ ومن يفعل ذلك فقد استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير .

( فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ) أى فما هذا الذى تمتعون به فى الدنيا مشوبا بالمنغصات والآلام إذا قيس بما فى الآخرة من النعيم المقيم، والرضوان من المولى إلا شىء قليل لا يرضى عاقل أن يتقبله بدلا منه .

روى أحمد ومسلم والترمذى عن المسور أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والله ما فى الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم ثم يرفعهما ، فلينظر بم يرجع » ؟ أى إن نعيم الدنيا فى قلته وقلة زمنه إذا قيس إلى نعيم الآخرة الطويل الأمد كانت تلك حاله .

( إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ) أى إن لم تخرجوا إلى ما دعاكم الرسول صلى الله عليه وسلم للخروج إليه - يعذبكم عذابا أليما فى الدنيا يهلككم به كتحط وغلبة عدو ، ويستبدل بكم قوما غيركم يطيعونه ويطيعون رسوله لأنه قد وعد بنصره ، واطهار دينه على الدين كله و ( ولن يخلف الله وعده ) .

وقد جرت سنته بأن الأمم التى لا تدافع عن نفسها ولا تحمى دمارها ، لا بقاء لها ، وتكون طعاما للأكليين ، وغذاءا لشهيا للمستعمرين .

( ولا تضروه شيئاً ) أى ولا تضروا الله شيئاً من الضرر فى تشاقلكم عن طاعته ونصرة دينه ، فهو الغنى عنكم فى كل أمر ، وهو القاهر فوق عباده ، وكل من فى السموات والأرض مسخر بأمره ، ولكن قد جعل للبشر شيئاً من الاختيار ليكون حجة عليهم فيما سيلقون من الجزاء على أعمالهم .

( والله على كل شىء قدير ) أى والله قادر على كل شىء ، فهو يقدر على إهلاككم والإتيان بغيركم ( إن أصرتم على عصيان رسوله وتشاقلتم عن الدفاع عن حوزة دينه ) ممن يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ولا يخشون فى الحق لومة اللاميين كما قال : « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » . ثم رغبهم ثانية فى الجهاد فأبان لهم أنه تعالى المتوكل بنصره - على أعداء دينه - أعانوه أو لم يعينوه ، وهو قد فعل ذلك به وهو فى قلة من العدد والعدو فى كثرة ، فكيف وهو من العدد فى كثرة والعدو فى قلة فقال :

( إلا تنتصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثنائى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ) أى إن لم تنصروا الرسول الذى استنصركم فى سبيل الله على من أرادوا قتاله من أعداء الله وأعداء رسوله - فسينصره الله بقدرته وتأبيده ، كما نصره حين أجمع المشركون على الفتك به واضطروه إلى الخروج والهجرة حال كونه أحد اثنين وثانیهما أبو بكر فى غار جبل ثور حين كان يقول لصاحبه إذ رأى منه أمارة الحزن : لا تحزن ولا تحزن إن الله معنا بنصره ومعونته وحفظه وتأبيده فلن يعلم بنا المشركون ولن يصلوا إلينا .

روى البخارى ومسلم من حديث أنس قال : « حدثنى أبو بكر قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الغار فرأيت آثار المشركين ، فقلت يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا تحت قدمه ، فقال عليه الصلاة والسلام ( يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ) .

وخلاصة ذلك — إلا تنصروه بالنفر لما استنفركم له ، فإن الله قد ضمن له النصر فهو ينصره كما نصره في الوقت الذي اضطره المشركون إلى الهجرة ، حين كان ثاني اثنين في الغار وكان صاحبه قد ساوره الحزن فقال له : لا تحزن إن الله معنا ، ونحن لانكلف أكثر مما فعلنا من الاستخفاء .

( فأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ) أى فَأَنْزَلَ اللهُ طمأنينته التي يسكن عندها القلب على رسوله وقواه بجنود من عنده وهم الملائكة الذين أنزلهم يوم بدر والأحزاب وأخذ ، وقيل بل هم ملائكة أيده بهم في حال الهجرة يسترونه هو وصاحبه عن أعين الكفار ويصرفونها عنهما ، فقد خرج والشبان المتواطئون على قتله وقوف ولم ينظروه .

( وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ) أى وجعل كلمة الشرك والكفر هي السفلى ، وكلمة الله هي دينه المبني على أساس توحيدته تعالى والمشمول على الأحكام والآداب الفاضلة ، والخالي من شوائب الشرك وخرافات الوثنية — هي العليا بظهور نور الإسلام وإزالة سيادة المشركين في تلك الجزيرة بعد كفاح طويل دارت فيه الدائرة عليهم : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا » .

( والله عزيز حكيم ) أى والله غالب على أمره ، حكيم إذ يضع الأشياء في مواضعها ، وقد نصر رسوله بعزته وأظهر دينه على الأديان كلها بحكمته ، وأذل من ناوأه من المشركين .

انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،  
ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) .

## المعنى الجملى

بعد أن توعد من لم ينفروا مع الرسول وثاقلوا حين استنفرهم - أتبعه بالأمر الجزم الذى لا هوادة فيه ، فأوجب النفير العام على كل فرد ، فلا عذر لأحد فى التخلف وترك الطاعة .

## الإيضاح

( انفروا خفافا وثقالا ) الخفاف واحدها خفيف ، والثقال واحدها ثقيل ، وهما يكونان فى الأجسام وصفاتها من صحة ومرض ونحافة وسمن ونشاط وكسل ، وشباب وكبر ، ويكونان فى الأسباب والأحوال كالثقل والكثرة فى المال ، ووجود الراحة وعدم وجودها ، ووجود الشواغل أو انقائها .

أى انفروا على كل حال من يسر أو عسر وصحة أو مرض وغنى أو فقر وقلة العيال أو كثرتهم أو غير ذلك مما ينتظم فى مساعدة الأسباب أو عدم مساعدتها بعد الإمكان والقدرة فى الجملة .

فإذا أعلن النفير العام وجب الامتثال لإحلال العجز التام ، وهو ما بينه الله تعالى فى قوله : « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ » .

ويؤيد هذا التعميم فى عموم الأحوال قول أبى أيوب الأنصارى وقد شهد المشاهد كلها بإغزاة واحدة : قال الله (انفروا خفافا وثقالا) فلا أجدنى إلا خفيفا أو ثقيلًا ، وروى عن أبى راشد الحرانى قال : وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا على تابوت من توابيت الصيافة بمحمص - وقد فضل عنها من عظمه - يريد الغزو ، فقلت قد أعذر الله إليك ، فقال أبت علينا سورة البعوث ( يريد براءة ) انفروا خفافا وثقالا .

وقد فهم سلفنا الصالح القرآن على هدى النبي وعمله ففتحوا البلاد وسادوا العباد ،  
 لكن بعد أن انحرفوا عن هديه وتدبر معانيه واكتفوا بتلاوته والتغنى بألفاظه ذلوا  
 وضعفوا واستكانوا وسادتهم الشعوب الأخرى وتقوض ملكهم من أطرافه وأصبحوا  
 من المستضعفين وصاروا عبيدا لأعدائهم .

( وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ) أى وجاهدوا أعداءكم الذين  
 يقاتلون في سبيل الطاغوت ويفسدون في الأرض ، وابدلوا أموالكم وأنفسكم في إقامة  
 ميزان العدل وإعلاء كلمة الحق .

فمن استطاع منكم الجهاد بماله ونفسه وجب عليه ذلك ، ومن قدر على أحدهما  
 وجب عليه ما كان في قدرته .

وقد كان المسلمون في الصدر الأول ينفقون على أنفسهم من أموالهم ويبدلون بها  
 لغيرهم إن استطاعوا كما فعل عثمان رضى الله عنه في تجهيز جيش العسرة في هذه الغزوة ،  
 وكما فعل غيره من ذوى اليسار من الصحابة .

ولما أصبح في بيت المال فصلة من المال بكثرة الغنائم صار الملوك والولاة  
 يجهزون الجيوش من بيت المال ، وكذلك تفعل الآن الدول المتمدينة ، فنخصص  
 جزءا من المال كل عام للنفقات الحربية من برية وبحرية ، ويزداد هذا المال إذا دعت  
 الحاجة إلى زيادته ، بل قد يعملون أموال الدولة كلها ومرافقها وقفا على المصالح الحربية ،  
 وقد كان المسلمون أحق منهم بذلك وأجدر .

( ذلكم خير لكم ) أى ذلكم الذى أمرتم به من النفر والجهاد الذى هو الوسيلة  
 في حفظ كيان الأمم وعلو كلمتها - خير لكم فى دينكم ودنياكم ؛ أما فى الدين فلا سعادة  
 إلا لمن ينصر الحق ويقم العدل باتباع هدى الدين والعمل بالشرع الحكيم .  
 وأما فى الدنيا فإنه لا عز للأمة ولا سيادة لها إلا بالقوة الحربية التى هى وسيلة لدفاع  
 العدو وكبح جماحه .

( إن كنتم تعملون ) أى إن كنتم تعملون ذلك علما يبعث على العمل ، فانفروا وجاهدوا ، وقد علم فضل ذلك المؤمنون الصادقون فامتثلوا أمره واهتدوا بهديه .  
ولما أمرهم بالنفر تخاف بعض المنافقين لأعذار ضعيفة ، وتخلف ناس آخرون من المؤمنين فأنزل الله فى أثناء السفر قوله :

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ ، وَلَكِنْ بَعُدَتْ  
عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا خُرْجًا مَعَكُمْ ، يَهْلِكُونَ  
أَنفُسَهُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ، لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ  
حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) .

### شرح المفردات

العرض : ما يعرض للمرء من منفعة ومتاع مما لا ثبات له ولا بقاء وليس فى الوصول إليه كبير عناء ، ويقال سير قاصد وسفر قاصد : أى هين لأمشقة فيه من التقصد وهو الاعتدال ، والشقة : الطريق لانه قطع إلا بعناء ومشقة ، والعفو : التجاوز عن التقصير وترك المؤاخذة عليه .

### المعنى الجملى

بعد أن رغبهم سبحانه فى الجهاد فى سبيل الله ، وبين أن فريقا منهم تباطؤوا وتثاقفوا - قفى على ذلك بيان أن فريقا منهم تخلفوا عنه فع كل ما تقدم من الوعيد والحث على الجهاد وطفقوا ينتحلون الأعذار الواهية ، ويستأذنونهم صلى الله عليه وسلم فى القعود والتخلف لىأذن لهم .

## الإيضاح

( لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ) أى لو كان ما دعوتهم إليه منفعة قريبة للنال ليس فى الوصول إليها كبير عناء ، وسفراً هيناً لاتعب فيه ، لاتبعوك وأسرعوا بالنفر إليه ، إذ حسب المنافع المادية والرغبة فيها طبيعى فى الإنسان ، ولا سيما إذا كانت سهلة المأخذ قريبة للنال وكان من يسعى إليها ممن لا يوقنون باليوم الآخر وما فيه من الثواب المقيم والأجر العظيم كأولئك المنافقين .

( ولكن بعدت عليهم الشقة ) أى ولكنك استنفرتهم إلى موضع بعيد وكلفتهم سفراً شاقاً ، لأنك استهزئتهم وقت الحر وزمن القيظ ، وحين الحاجة إلى السكن ، فتخلفوا جنباً وحباً للراحة والسلامة .

( وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ) أى وسيحلفون لك عند رجوعك من غزوة تبوك كما قال : « يَمْتَدِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ » قائلين لو استطعنا الخروج إلى الجهاد وانتفت الأعداء المانعة منه لخرجنا معكم ، فما كان تخلفنا إلا اضطراراً . ( يهلكون أنفسهم ) أى يهلكون أنفسهم بإيقاعهم فى العذاب بامتهان اسم الله بالحلف الكاذب لستر نفاقهم وإخفائه ، تأييداً للباطل بالباطل ، وتقوية للإجرام بالإجرام ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع » .

( والله يعلم إنهم لكاذبون ) فى حلفهم بالله وقولهم لو استطعنا لخرجنا معكم ، فهم كانوا للخروج مطيقين ، إذ كانوا أصحاب الأبدان أقوىاء الأجسام ذوى يسرة فى المال . ثم عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى إذنه لمن تخلف عنه من المنافقين حين شخص إلى تبوك لغزو الروم فقال :

( عفا الله عنك ) أى عفا عنك ما أدى إليه اجتهادك من الإذن لهم حين استأذنتوك وكذبوا عليك فى الاعتذار . . . ( لم أذنت لهم ؟ ) أى لأى شىء أذنت لهم بالعود والتخلف كما أرادوا ، وهلا

تريثت في الأذن لهم وتوقفت عنه حتى ينجلي أمرهم وينكشف حالهم ، وإلى ذلك الإشارة بقوله :

( حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ) أى حتى يتبين لك الفريقان ، فتعامل كلاً بما ينبغي أن يعامل به ، فإن الكاذبين لا يخرجون ، أذنت لهم أو لم تأذن ، فكان من الأجدر بك أن تملث في الإذن أو تمسك عنه اختباراً لحالهم .  
 روى عن مجاهد في قوله ( عفا الله عنك لم أذنت لهم ؟ ) قال هم ناس قالوا استأذنا رسول الله ، فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا ، وعن قتادة في قوله ( والله يعلم إنهم لكاذبون ) لقد كانوا يستطيعون الخروج ، ولكن كان تبطله من عند أنفسهم وزهادة في الجهاد .

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) .

### المعنى الجملى

تقدم أن قلنا إن هذه السورة تسمى الفاضحة ، لأنها فضحت أنواع النفاق وكشفت أحوال المنافقين ، ومن ثم نقل البغوى وغيره عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين حتى نزلت سورة براءة ، والمراد أنه لم يكن يعرفهم كلهم ويعرف شؤونهم بهذا التفصيل حتى نزلت . وهذه الآيات أول ما نزل في التفرقة بين المنافقين والمؤمنين في القتال .

## الإيضاح

( لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم )  
 أى ليس من شأن المؤمنين بالله الذى كتب عليهم القتال ، وباليوم الآخر الذى  
 يوفى فيه كل عامل جزاء ما عمل ، أن يستأذنوك أيها الرسول فى أمر الجهاد فى سبيل  
 الله بأموالهم وأنفسهم إذا جد ما يدعو إلى ذلك ، بل يقدمون عليه عند وجوبه من  
 غير استئذان كما قال « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا  
 وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » بل هم يستعدون  
 له وقت السلم بإعداد القوة ورباط الخيل .

وهم بالأولى لا يستأذنونك فى التخلف عنه بعد إعلان النفر العام ، وأقصى  
 ما قد يقع من فريق منهم هو التماقل والتباطؤ إذا كان النصر بعيدا .

روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « من  
 خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة  
 أو فرعا طار على متنه يبتغى القتل والموت مظانه الخ ». والمراد أن خير أعمال الرجل أن  
 يعد فرسه رباطا فى سبيل الله ، كلما سمع صيحة لقتال أو فروعة ( أى دعوة للاغاثة ) طار  
 على فرسه يبتغى القتل والموت فى مظانه « أى المواضع التى يظن أنه يلقى القتل فيها .  
 ( والله عليم بالمتقين ) أى والله عليم بمن خافه فأتقاه باجتناب ما يسخطه وفعل  
 ما يرضيه بالمسارعة إلى طاعته فى غزو عدوه وجهادهم بماله ونفسه ، وليس من دأبهم  
 أن يستأذنوا بالتخلف كراهة للقتال .

وفى الآية إيماء إلى أنه لا ينبغى الاستئذان فى أداء شئ من الواجبات  
 ولا فضائل العادات كقرى الضيف وإغاثة الملهوف وسائر أعمال المعروف .

ثم صرح بما فهم من الكلام السابق زيادة فى التوكيد والتقرير فقال :  
 ( إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهمم )

في ريبهم يترددون) أى إنما يستأذنك في التخلف عن الجهاد معك من غير عذر من  
 لا يصدّقون بالله ولا يقرون بتوحيده ولا باليوم الآخر ، فهؤلاء يرون بذل المال  
 مغرماً يفوت عليهم بعض المنافع ، وهم لا يرجون ثواباً عليه كما يرجو المؤمنون ، ويرون  
 الجهاد بالنفس آلاماً ومتاعب ، وقد وقع لهم الريب والشك في الدين من قبل ، فلم  
 تظمن به قلوبهم ، ولم تدعن له نفوسهم ، فهم متحيرّون في أمرهم مذنبون في عملهم ،  
 يوافقون المؤمنين فيما يسهل أداءه من عبادات الإسلام من صلاة وصيام ، ويلتصون  
 الخلاص فيما يشق عليهم من تكاليفه ، ويعتذرون بالمعاذير الكاذبة للهرب من القيام  
 بشيء منها .

وقد جاء في بعض الروايات أن عدد هؤلاء كان تسعة وثلاثين رجلاً .

( ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ) أى ولو صحت نيتهم للخروج لاستعدوا له  
 وأخذوا الأهبة من زاد وراحلة ونحو ذلك مما يحتاج إليه المسافر لمثل هذا السفر  
 البعيد ، وقد كانوا مستطيعين لذلك ولم يفعلوا .

(ولسكن كره الله انبعاثهم فثبطنهم) الانبعاث توجيه الإنسان أو الحيوان إلى  
 الشيء بقوة كبعث الرسل وبعث الموتى ، والتثبيط التعويق عن الأمر والمنع منه .

أى كره الله نفرهم وخروجهم مع المؤمنين لما فيه من الضرر المائق لهم عما أحبه  
 من نصرهم ، فثبطنهم بما أحدث في قلوبهم من الخواف التي هي مقتضى سننه من  
 تأثير النفاق فيها ، ومن ثم لم يعدوا للخروج عدته ، لأنهم لم يريدوه ، وإنما أرادوا  
 بالاستئذان ستر ما عزموا عليه من المخالفة والعصيان .

(وقيل أعدوا مع القاعدین) أى وقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك  
 بعبارة تدل على السخط لا على الرضا ، أى أعدوا مع الأطفال والزمنى والعجزة  
 والنساء ، وهم قد حملوه على ظاهره لمواقفته لما يريدون .

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ  
يَتَّبِعُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدْ  
ابْتَعَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ  
أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) .

### شرح المفردات

الخبال: الاضطراب في الرأي والفساد في العمل، كضعف القتال والخلل في النظام،  
ويقال وضع الرجل إذا عدا مسرعا، وأوضع راحلته إذا حملها على الإسراع، وخلال  
الأشياء: ما يفصل بينها من فروج ونحوها، والفتنة: التشكيك في الدين والتخويف  
من الأعداء، وسماعون لهم: أي ضعفاء العزيمة يسمعون قولهم، وتقليب الشيء:  
تصريفه في كل وجه من وجوهه والنظر في كل ناحية من أبعاده؛ والمراد أنهم دبروا  
الحيل والمكائد ودوروا الآراء في كل وجه لإبطال دينك .

### المعنى الجملي

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أن استئذنانهم في التخلف عن القتال إنما كان  
سترا لنفاقهم وتغطية لعصيانهم - قفي على ذلك بيان المفاسد التي كانت تنجم من  
خروجهم لو خرجوا وحصرها في أمور ثلاثة :

- (١) الاضطراب في الرأي وفساد النظام .
- (٢) تفريق الكلمة بالسعي فيما بينكم بالنيمة .
- (٣) إن فيكم ناسا من ضعفاء الإيمان يسمعون كلامهم ويقبلون قولهم .

## الإيضاح

(١) (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا) أى لو خرج هؤلاء المناقوتون المستأذنون فى القعود معكم ، ما زادوكم قوة ومنعة وإقداما كما هو الشأن فى القوى المتحددة فى العقيدة والمصلحة ، بل زادوكم اضطرابا فى الرأى وضعفا فى القتال ومفسدة للنظام ، كما حدث مثل ذلك فى غزوة حنين ، فقد ولى المناقوتون الأدبار فى أول المعركة وولى على إثرهم ضعفاء الإيمان من طلقاء فتح مكة ، ومن ثم اضطرب نظام الجيش ، فولى أكثر المؤمنين معهم بلا تدبر ولا تفكير كما هو الشأن فى مثل هذه الأحوال .

(٢) (ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) أى ولأسرعوا فى الدخول فىا بينكم سعيا فى النيمة وتفريق الكلمة، يبغون بذلك تشييطكم عن القتال وتهويل أمر العدو وإيقاع الرعب فى قلوبكم .

(٣) (وفيكم سماعون لهم) أى وفيكم ناس من ضعفاء الإيمان أو ضعفاء العزم يسمعون كلامهم ، فإذا ألقوا إليهم شيئا مما يوجب ضعف العزائم قبلوه وفتروا بسببه عن القيام بأمر الجهاد كما ينبغى .

ووجه العتاب على الإذن فى قعودهم مع ما قص الله تعالى من المفاصد التى تترتب على خروجهم - أنهم لو قعدوا بغير إذن منه لظهر نفاقهم بين المسلمين باذى بدى بدء ، فلم يستطيعوا مخالطتهم ولا السعى فىا بينهم بالأراجيف وقالة السوء التى يقبح أثرها ، وتسوء عاقبتها .

( والله عليم بالظالمين ) علما يحيط بظواهرهم وبواطنهم وأعمالهم ما تقدم منها وما تأخر ، وبما هم مستعدون له فى كل حال مما وقع ومما لم يقع ، فأحكامه فيهم على علم تام لا ظن فيه ولا اجتهاد كاجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم فى الإذن لهم ، والذى تثبت هذه الآية أنه شر لا خير فيه وهو ضعف لا قوة ، ولكنه صلى الله

عليه وسلم لم يكن يعلم أنهم لا يخرجون إذا لم يأذن لهم ، فهذا من أخبار الغيب التي لا يعلمها إلا الله ، وهو لم يعلمه قبل نزول هذه الآيات .

وقد كان من حكمة الله في تربية رسوله وتكميله أن يبين له بعض الحقائق بعد اجتهاده فيها لتكون أوقع في نفسه ونفس أتباعه فيحرصوا على العمل بها ، ولا يحكموا أهواءهم فيها ، وكذلك كان السلف الصالح يسرون على نهجه ، ويهتدون بهديه .

( لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ) أى ولقد ابتغى هؤلاء المنافقون إيقاع الفتنة في المسلمين وتفريق شملهم من قبل هذه الغزوة في غزوة أحد حين اعتزلهم عبد الله بن أبي بن سائل زعيم المنافقين بثلاث الجيش في موضع يسمى الشوط بين المدينة وأحد ، وطفق يقول للناس : أطاع النبي الولدان ومن لا رأى له ، فعلام نقتل أنفسنا؟ ، وكان من رأيه عدم الخروج إلى أحد فرجع بمن اتبعه من المنافقين ، وكاد يتبعه بنو سلمة وبنو حارثة فيرجعون ولكن عصمهما الله من الفتنة .

وكان دأب المنافقين أن يدبروا له الحيل والمكايد ليبتلوا أمره ، فكان لهم ضلع مع اليهود وضلع مع المشركين في كل ما فعلا من عداوته وقتال المؤمنين حتى جاء النصر الذي وعده ربه وظهر دين الله وعلا شرعه بالتمكين باليهود الغادرين الناكثين لليهود ، والنصر على المشركين بفتح مكة ودخول الناس في الإسلام أفواجا وهم كارهون لذلك ، حتى لقد كانوا يمتنون أنفسهم بظهور المشركين على المؤمنين في حنين وعودة الشرك إلى قوته .

وفي الآيتين تسليمة لرسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن تخلف المنافقين وبيان ما ثبتهم الله تعالى لأجله ، وفيه هتك أستارهم وإزاحة أعدائهم .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ ، وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ، هُوَ مَوْلَانَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِنَا ، فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) .

### المعنى الجملى

هذه الآيات سيقت لبيان أقوال قائلها المنافقون ، بعضها قيلت جهرا ، وبعضها أكنوه في أنفسهم ، وأعدار سيعتذرون بها غير ما سبق منهم ، وشئون أخرى لهم أكثرها من أنباء الغيب .

### الإيضاح

(ومِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي) أى ومن المنافقين ناس يستأذنونك في التخلف عن القتال حتى لا يفتتنوا بنساء الروم .

روى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لجلد بن قيس « يا جد هل لك في جلاد بنى الأصفر ؟ قال جد ، وكان من شيوخ المنافقين : أتأذن لى يارسول الله فإنى رجل أحب النساء . وإنى أخشى إن أنا رأيت نساء بنى الأصفر أن أفتنن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عنه ( قد أذنت لك ) فنزلت الآية » .

وقد رد الله شبهته وشبهة من وافقه عليها بقوله :

(ألا في الفتنة سقطوا) أى فليعلموا أنهم بمقاتلتهم هذه سقطوا وتردّوا في هاوية الفتنة ، حين اعتذروا بالمعاذير الكاذبة ، من حيث يزعمون اتقاء التعرض لللاثم بالنظر إلى جمال نساء الروم ، وشغل القلب بحاسنهن .

(وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) أى وإن النار لمطيفة بمن كفر بالله ووجد آياته وكذب رسله ، جامعة لهم يوم القيامة ، وكفى بها نكالا ووبالا .

وهذا وعيد لهم على الفتنة التي تردّوا فيها ، وبيان لأن عقابهم بإحاطة جهنم بهم عقاب على الكفر الذي حملهم على ذلك الاعتذار ، وإنما تحيط النار بمن أحاطت بهم خطاياهم حتى لا رجاء في توبتهم منها كما قال تعالى « كَسِبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

(إن تصبك حسنة تسؤهم) الحسنة ما يسر النفس حصوله من غنيمة ونصر ونحوها: أى إن كل ما يسرك من النصر والغنيمة كما حدث يوم بدر - يورثهم كآبة وحزنا لفرط حسدهم وعداوتهم .

(وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون) أى وإن تصبك شدة كالنكسار جيش كما حدث يوم أحد - يقولوا معجبين بأرائهم حامدين ما صنعوا ، قد تلافينا ما يهمننا من الأمر بالحذر والحزم كما هو دأبنا ، إذ تخلفنا عن القتال ولم نلق بأيدنا إلى الهلاك ، وينصرفوا عن الموضوع الذى يقولون فيه هذا القول وهم فرحون فرح البطر والشماتة .

روى ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : جعل المنافقون الذين تخلفوا فى المدينة يشيعون أخبار السوء عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويقولون إنهم جهدوا فى سفرهم وهلكوا ، فبلغهم بعد ذلك كذب خبرهم وعافية النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فسأهم ذلك فأنزله الله (إن تصبك حسنة تسؤهم) الآية .

( قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ) أى قل أيها الرسول لأولئك المنافقين الذين يفرحون بمصائبك وتسوءهم نعمتك : لن يصيبنا إلا ما خط لنا وكتب في اللوح المحفوظ على حسب سننه تعالى في خلقه من نصر وغنيمه أو تمحيص وشهادة ، ولا يتغير ذلك بموافقكم أو مخالفتكم ، فالأمور كلها بقضائه تعالى .

( هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ) أى هو ناصرنا ومتولى أمورنا بتوفيقنا ونصرنا ، ونحن نلجأ إليه ونتوكل عليه ، فلا نياس عند شدة ولا نبطر عند نعمة كما قال سبحانه في بيان سننه تعالى في خلقه ( أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا . ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ) .

ومن حق المتوكل على الله وحده أن يقوم بما أوجه عليه في شرعه ، ويهتدى بسننه في خلقه ، من الأخذ بأسباب النصر المادية والمعنوية كإعداد العدة واتقاء التنازع الذى يولد الفشل ويفرق الكلمة ، ثم بعد ذلك يكمل الأمر إليه فيما لا تصل إليه الأيدي من الأسباب ويتوقف عليه حصول النجاح .

ويقابل التوكل بهذا المعنى اتكال الماديين على حولهم وقوتهم وحدها ، حتى إذا أدركهم العجز خانهم الصبر وأدركهم اليأس حين حلول البأس ، واتكال ذوى الأوهام الذين يتعلقون بالأمانى والأحلام ، حتى إذا ما استبان لهم فساد أوهامهم نكصوا على أعقابهم وكفروا بوعد ربهم بنصر المؤمنين ، وهو إنما وعد أوليائه لا أوليائه الشيطان وذوى الخرافات والأوهام .

( قل هل تر بصون بنا إلا إحدى الحسينين ونحن نتر بص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتر بصوا إنا معكم متر بصون ) أى قل لهم : أيها الجاهلون ، هل تنتظرون بنا إلا إحدى العاقبتين النصر أو الشهادة ، ونحن نتر بص بكم إحدى الشؤيين أن يصيبكم ربكم بقارعة سماوية لا كسب لنا فيها ، كما فعل بالأمم

المكذبة لرسلاها، أو أن يأذن لنا بقتالكم إن أغراكم الشيطان باظهار كفركم، فتربصوا بنا إنا معكم متربصون من عاقبتنا وعاقبتكم إن أصررتم على كفركم وظهر أمركم ، فنحن على بينة من ربنا ولا بينة لكم ، فإذا لقي كل منا ومنكم ما يتربصه ، لا نشاهد إلا ما يسوءكم ولا تشاهدون إلا ما يسرنا .

والدين لا يأمر بقتل المنافق مادام يظهر الإسلام و يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة .

قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِن كُنتُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه اعتذار المنافقين بالمعاذير الكاذبة ، وتعللاتهم الباطلة في التخلف عن القتال ، وذكر ما يجول في نفوسهم من كراهتهم للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وأنهم يتربصون بهم الدوائر — ففى على ذلك بيان أن نفقاتهم على الجهاد في هذه الحال طوعا أو كرها لن يتقبلها الله ولا ثواب لهم عليها ، لما يبطنونه في صدورهم من الكفر والفسوق عن أمر الله ، فهم إن فعلوا شيئا من أركان الدين فإتما يفعلونه رياء الناس وخوفا على أنفسهم من الفضيحة إذا هم تركوها ، وأن أموالهم الكثيرة إنما هى عذاب لهم فى الدنيا والآخرة .

### الإيضاح

( قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِن كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين : أنفقوا من أموالكم ما شئتم فى الجهاد أو فى غيره من

النفقات التي أمر الله بها وحث في شرعه عليها حال الطوع تقيّة وحفظاً للنفس ، وكرها خوفاً من العقوبة ، فهما أنفقتم فلن يتقبل منكم ما دمتم في شك مما جاء به الرسول من الدين والجزاء على الأعمال في الآخرة ، لأنكم قوم فاسقون أى خارجون من دائرة الإيمان ، والله إنما يتقبل من المؤمنين .

(وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله) أى وما منع قبول نفقاتهم إلا كفرهم بالله وصفاته على الوجه الحق ، وكفرهم برسالة رسوله وما جاء به من الهدى والبيّنات .

(ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) أى ولا يصلون إلا رياء وتقيّة ، لا إيماناً بوجوبها ، ولا قصداً إلى ثوابها واحتساباً لأجرها ، ولا تكميلاً لأنفسهم بما شرعه الله لأجلها ، لأنهم لا يأتونها إلا وهم متثاقلون كسالى لا تشرح لها نفوسهم ولا تنشط لها أبدانهم .

(ولا ينفقون إلا وهم كارهون) أى ولا ينفقون أموالهم فى مصالح الجهاد وغيره إلا وهم كارهون لذلك غير طيبة به أنفسهم ، لأنهم يعدون هذه النفقات مغارم تضرب عليهم ينتفع بها المؤمنون وهم ليسوا منهم ، فلا نفع لهم بما أنفقوا لافى الدنيا وهو واضح ولا فى الآخرة ، إذ لا يؤمنون بها .

ولما كان من أقوى أسباب إعراضهم عن آيات الله كثرة المال وطغيان الفنى بين سبحانه سوء عاقبة المال لهم فقال

(فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) الإعجاب بالشىء السرور به مع الافتخار واعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه ، والخطاب لكل من سمع القول أو بلغه .

أى فلا تعجبك أيها السامع أموالهم ولا أولادهم التي هى من أكبر النعم وأجلّها ، ولا يجولن بخاطرك أنهم - وقد حرموا ثوابها فى الآخرة - صفا لهم نعيمها فى الدنيا ، وإلى هذا أشار بقوله سبحانه :

(إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) مما ينالهم بسببها من التنغيص

والحسرة .

أما الأموال فلأنهم يلاقون النصب والتعب في جمعها واكتسابها ، و يلاقون ما هو أشد من ذلك في حفظها وصونها من الهلاك ، فالمشغوف بالمال يكون أبدا في تعب الحفظ والصون ، وهو مع ذلك لا ينتفع إلا بالقليل منها كما قال عليه السلام «مَالِكٌ مِنْ مَالِكٍ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ» .  
وأما الأولاد فإنهم يرون أنهم قد نشئوا في الإسلام واطمأنت به قلوبهم ، فهم يجاهدون في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم ، وربما ماتوا في الغزو — فيجزعون أشد الجزع ، إذ لا يعتقدون شهادتهم ، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وأن الاجتماع بهم قريب كما يعتقد المؤمنون .

( وترهق أنفسهم وهم كافرون ) أى ويموتون ويهلكون وهم كافرون ، فيعذبون بها في الآخرة إثر ما عذبوا بها في الدنيا ، لموتهم على الكفر الذى يحبط أعمالهم .

وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ ، وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) .

### شرح المفردات

الفرق (بالتحريك) الخوف الشديد الذى يفرق بين القلب وإدراكه ، والملاجئ : المكان الذى يلجأ إليه الخائف ليعتصم به كحصن أو قلعة أو جزيرة فى بحر أو قنطرة فى جبل ، والمغارات : واحدها مغارة وهى الكهف فى الجبل يغور فيه الإنسان ويستتر والمدخل (بالتشديد) السرب فى الأرض يدخله الإنسان بمشقة ، والجماح السرعة التى تتعذر مقاومتها .

## المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن المنافقين يظهرون غير ما يضررون ، فإذا هم طلبوا الإذن خوف الفتنة كانوا كاذبين ، وذكر أنهم يتمنون أن تدور الدوائر على المؤمنين قفى على ذلك بذكر غلوهم فى النفاق وأنهم لا يتحرجون أن يخلفوا الأيمان الفاجرة لستر نفاقهم خوف الفضيحة ، وأنهم يتمنون أن يجدوا أى السبل للبعد عن المؤمنين ، فيلجئوا إليها مسرعين .

## الإيضاح

( ويخلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ) أى ويخلفون بالله لكم كذبا إنهم منكم فى الدين والملة ، وهم ليسوا من أهل دينكم وملتكم ، بل هم أهل شك ونفاق ، ولكنهم يخافونكم فيقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

( لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمعون ) أى إنهم لشدة كرههم للقتال معكم ولبعض معاشرتهم إياكم والمعظم الخوف من ظهور نفاقهم لكم يتمنون الفرار منكم والعيش فى مكان يعتصمون به من انتقامكم منهم ، فلو استطاعوا السكنى فى الحصون والقلاع ، أو فى كهوف الجبال ومغاراتها ، أو فى أنفاق الأرض وأسرابها - لولوا إليه مسرعين كالفرس الجوح لا يردم شىء .

وإنما وصفهم الله سبحانه بتلك الأوصاف ، لأنهم إنما أقاموا بين أظهر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كفرهم ونفاقهم وعداوتهم لهم ، لأنهم كانوا بين عشيرتهم وفى دورهم وأموالهم ، ولم يقدرُوا على ترك ذلك وفراقه ، فصانعوا القوم بالنفاق ودافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأولادهم بإخفاء الكفر ودعوى الإيمان ، وفى أنفسهم ما فيها من البغض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأهل الإيمان به وبالغ الحقد عليهم .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ، فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ  
يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْتَخْطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ  
وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ، إِنَّا إِلَى اللَّهِ  
رَاغِبُونَ (٥٩) .

### شرح المفردات

اللمز : العيب والظن في الوجه ، والهمز : الطعن في الغيبة ، ورضبه ورضب فيه :  
أحبه ، ورضب عنه : كرهه ، ورضب إليه : طلبه وتوجه إليه .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أن المنافقين لا يتخرجون عن كاذب الإيمان إذا وجدوا  
في ذلك طريقا لخدعة المؤمنين في تصديقهم بأنهم مؤمنون كما هم مؤمنون كي يأمنوا  
جانبيهم ، وأنهم يجدون في البعد عنهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا - أزدف ذلك  
بذكر سواة أخرى من سوءاتهم وهي أنهم يتنون الفرص للظن على النبي صلى الله  
عليه وسلم حتى يوقعوا الريب في قلوب ضعفاء الإيمان من المسلك الذى يوافق  
أهواءهم ، وقد وجدوا من ذلك قسمة الصدقات والمغانم ، فولجوا هذا الباب وقالوا  
ما شاءوا أن يقولوا .

روى البخارى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « بينما النبي  
صلى الله عليه وسلم يقسم قسما إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي فقال أعدل يا رسول الله ،  
فقال : ويلاك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ فقال عمر بن الخطاب : أئذن لى أن  
أضرب عنقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم  
صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية  
فنزات فيهم (ومنهم من يلزمك في الصدقات ) الآية » .

وروى ابن جرير عن داود بن أبي عاصم قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بصدقة فقسماها ها هنا وها هنا حتى ذهبت ورأى ذلك رجل من الأنصار فقال ما هذا بالعدل فزلت هذه الآية .

ومجموع الروايات يدل على أن أشخاصا من منافقي المدينة قالوا ذلك لحرماتهم من العطية ، ولم يقله أحد من المهاجرين ولا من الأنصار الأولين الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم في منى .

### الإيضاح

( ومنهم من يلزمك في الصدقات ) أى ومن المنافقين من يعيبك ويطعن عليك في قسمة الصدقات وهى أموال الزكاة المفروضة إذ يزعمون أنك تحابى فيها وتؤتى من تشاء من الأقارب وأهل المودة ولا تراعى العدل فى ذلك .

ثم بين سبحانه أسباب هذا اللزم وأن منشأه حرصهم على حطام الدنيا فقال : ( فإن أعطوا منها رضوا ) أى فإن أعطوا ولو بغير حق كأن أظهروا الفقر كذبا واحتيالا ، أو أعطوا لتأليف قلوبهم - رضوا بهذه القسمة واستحسنوا فعلك .

( وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ) أى وإن لم يعطوا منها فاجئوك بالسخط وإن لم يكونوا مستحقين للعطاء ، إذ لا هم لهم إلا المنفعة الدنيوية ونيل حطام الدنيا .

( ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ) أى ولو أنهم رضوا ما أعطاهم الله من الغنائم وغيرها ، وأعطاهم رسوله بقسمة الغنائم والصدقات كما أمره الله ، وقالوا الله يكفيننا فى كل حال ، وسيعطينا من فضله بما يرد علينا من الغنائم والصدقات ، لأن فضله لا ينقطع ، ورسوله لا يبغض أحدا منا شيئا يستحقه فى شرع الله ، وقالوا إنا إلى الله نرغب فى أن يوسع علينا من فضله فيغنيننا عن الصدقة وغيرها من صلوات الناس والحاجة إليهم - لوفعلوا ذلك لكان خيرا لهم من الطمع فى غير مطعم ومن همز الرسول ولمزه .

والخلاصة — إنهم لورضوا من الله بنعمته ، ومن الرسول بقسمته ، وعلقوا أملهم بفضل الله وكفايته ، وبما سينعم به عليهم في مستأنف الأيام ، وبأن الرسول يعدل في القسمة لكان في ذلك الخير كل الخير لهم .  
وفي ذلك إيماء إلى أن المؤمن يجب أن يكون قانعا بكسبه وما يناله بحق من صدقة ونحوها مع توجيه قلبه إلى ربه ، ولا يرغب إلا إليه في الحصول على رغبته التي وراء كسبه وحقوقه الشرعية .

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ  
وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ،  
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) .

### شرح المفردات

الصدقة : هي الزكاة الواجبة على النقد والأنعام والزرع والتجارة ، والفقير : من له مال قليل دون النصاب ( أقل من اثني عشر جنهما ) والمسكين : من لا شيء له فيحتاج للمساعدة لقوته وكسوته ، والعامل عليها : هو الذي يولية السلطان أو نائبه العمل على جمعها من الأغنياء ، والمؤلفة قلوبهم : هم الذين يراد استمالة قلوبهم إلى الإسلام أو التثبيت فيه ، وفي الرقاب : أي وللانفاق في إعانة الأرقاء لفكاكهم من الرق ، والغارمين : أي الذين عليهم غرامة من المال تعذر عليهم أداؤها ، وفي سبيل الله : أي وفي الطريق الموصل إلى مرضاة الله ومشوبته ، والمراد بهم كل من سعى في طاعة الله وسبل الخيرات كالغزاة والحجاج الذين انقطع بهم السبل ولا مورد لهم من المال وطلبة العلم الفقراء ، وابن السبيل : هو المسافر الذي بعد عن بلده ولا يتيسر له إحضار شيء من ماله فهو غني في بلده ، فقير في سفره : فريضة من الله أي فرض الله ذلك فريضة ليس لأحد فيها رأى .

## الإيضاح

مصارف الزكاة والأشخاص الذين تعطى لهم وهم أصناف ثمانية :

(١) (إنما الصدقات للفقراء) أى إنما تعطى زكاة النقد أو النعم أو التجارة أو الزرع للفقراء الذين يحتاجون إلى مواساة الأغنياء ، لعدم وجود ما يكفيهم من المال على حسب حالهم .

(٢) (والمساكين) وهم أسوأ حالا من الفقراء لقوله تعالى : « أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ » أى الصق جلده بالتراب فى حفرة استتر بها مكان الإزار ، وبطنه به لشدة الجوع وذلك منتهى الضر والشدة .

(٣) (والمعلمين عليها) وهم الذين يبعثهم السلطان لجبايتها أو حفظها ، فيشمل الجباة (المحصلين) وخزنة المال (مديرو الخزائن) وهم يأخذون منها عمالتهم على عملهم لأعلى فقرهم .

روى أحمد والشيخان أن ابن السعدى المالكي قال : استعملنى عمر على الصدقة فلما فرغت منها وأديتها إليه أمر لى بعالة ، فقلت إنما عملت لله ، فقال : خذ ما أعطيت فإنى عملت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعملنى (أعطانى العالة) فقلت مثل قولك ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أعطيت شيئا من غير أن تسأل فكل وتصدق » .

(٤) (والمؤلفة قلوبهم) وهم قوم يراد استمالتهم إلى الإسلام ، أو تثبيتهم فيه ، أو كف شرهم عن المسلمين ، أو رجاء نفعهم فى الدفاع عنهم أو نصرهم على عدو لهم ، وهم أصناف ثلاثة :

(١) صنف من الكفار يرجى إيمانهم بتأليف قلوبهم كصفوان بن أمية الذى وهب له النبي صلى الله عليه وسلم الأمان يوم فتح مكة وأمهله أربعة أشهر لينظر فى أمره ، وأعطاه إبلا محملة فقال هذا عطاء من لا يخشى الفقر ، وروى أنه قال : والله

لقد أعطاني وهو أبغض الناس إليّ ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي ، وقد حسن إسلامه .

(ب) صنف أسلم على ضعف ، ويرجى بإعطائه تثبيته وقوة إيمانه ومناصحته في الجهاد كالذين أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم العطايا الوافرة من غنائم هوازن ، وهم بعض الطلقاء من أهل مكة الذين أساموا وكان منهم المنافق ومنهم ضعيف الإيمان ، وقد ثبت أكثرهم بعد ذلك وحسن إسلامهم .

(ح) صنف من الساميين في الثغور وحدود بلاد الأعداء يعطون لما يرجى من دفاعهم عن وراءهم من المسلمين إذا هاجمهم العدو .

ويرى أبو حنيفة أن سهم هؤلاء قد انقطع بإعزاز الله الإسلام ، واحتج بأن مشركا جاء يلتمس من عمر مالا فلم يعطه وقال ( من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ) وبأنه لم ينقل أن عثمان وعلياً أعطيا أحدا من هذا النوع .

(٥) ( وفي الرقاب ) أي وللإنفاق في فك الرقاب بإعانة المكاتبين من الأرقاء في فك رقابهم من الرق ، أو لشراء العبيد وإعتاقهم ، وهذا من أكبر الإصلاح البشري الذي هو المقصود من رحمة الإسلام وعدله .

روى أحمد والبخاري عن البراء بن عازب قال : « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : دلني على عمل يقربني من الجنة ويبعدني من النار ، فقال : أعتق النسيئة وفك الرقبة ، فقال يا رسول الله أو ليسا واحدا ؟ قال لا : عتق الرقبة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين بثمنها » .

(٦) ( والغارمين ) وهم الذين عليهم ديون ركبهم وتعدر عليهم أداؤها . وقد كان العرب إذا وقعت بينهم فتنة اقتضت غرامة في دية أو غيرها قام أحدهم فبزع بالتزام ذلك والقيام به حتى ترتفع تلك الفتنة الثائرة ، وكانوا إذا علموا أن واحدا منهم التزم غرامة أو تحمل كحالة بادروا إلى معونته على أدائها وإن لم يسأل ، وكانوا يعدون سؤال المساعدة على ذلك فخرا لا ذلا .

فمن قبيصة بن مخارق الهلالي قال : « تحملت حمالة فأتيته رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها ، فقال أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ، ثم قال يا قبيصة : إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب سدادا من عيش ، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من أهل الحجبا من قومه : لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ، فما سواها من المسألة يا قبيصة فسخت يأكلها صاحبها سحتا » رواه أحمد ومسلم والنسائي وأبو داود .

(٧) ( وفي سبيل الله ) وسبيل الله هو الطريق الموصل إلى مرضاته ومثوبته ، والمراد به الغزاة والمرابطون للجهاد ، وروى عن الإمام أحمد أنه جعل الحج من سبيل الله ، ويدخل في ذلك جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد ونحو ذلك .

والحق أن المراد بسبيل الله مصالح المسلمين العامة التي بها قوام أمر الدين والدولة دون الأفراد كتأمين طرق الحج وتوفير الماء والغذاء وأسباب الصحة للحجاج وإن لم يوجد مصرف آخر ، وليس منها حج الأفراد لأنه واجب على المستطيع فحسب .

(٨) ( وابن السبيل ) وهو المنقطع عن بلده في سفر لا يتيسر له فيه شيء من ماله إن كان له مال ، فهو غنى في بلده ، فقير في سفره ، فيعطى لفقره العارض ما يستعين به على العودة إلى بلده .

وفي ذلك عناية بالسياحة وتشجيع عليها على شرط أن يكون سفره في غير معصية ، ويكون هذا من أسباب التعاون على البر والتقوى ، وعدم التعاون على الإثم والعدوان .

وسهولة طرق الوصول في العصر الحاضر ونقل الأخبار في الزمن القليل جعلت نقل المال من بلد إلى آخر ميسورا بلا كلفة ، فيسهل على الغنى أن يجلب ماله في أي وقت أراد ، وإلى أي مكان طلب .

(فريضة من الله) أى إنما الصدقات لمن ذكر من أصناف المحتاجين ، وفيما ذكر من مصالح الأمة فريضة من الله لهم أوجبها عليكم .

(والله عليم حكيم) أى والله عليم بأحوال الناس ومقدار حاجتهم ، حكيم فيما يشرعه لهم تطهيرا لأنفسهم وتزكية لها ، وشكرا لخالقهم على ما أنعم به عليهم كما قال :  
« خذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » .

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ، قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) .

### شرح المفردات

الأذى : ما يؤلم الحى المدرك فى بدنه أو فى نفسه ولو ألما خفيفا ، يقال أذى بكذا أذى وتأذى تأذيا إذا أصابه مكروه يسير ، والأذن : هو الذى يسمع من كل أحد ما يقول فيقبله ويصدقه ، ويقولون رجل أذن : أى يسرع الاستماع والقبول ، ويؤمن للمؤمنين : أى يصدقهم لما علم فيهم من علامات الإيمان الذى يوجب عليهم الصدق .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من دلائل نفاقهم الطعن فى أفعاله صلى الله عليه وسلم كإيذاء الذين لمزوه فى قسمة الصدقات - ففى على ذلك بذكر من طعن فى أخلاقه وشماله الكريمة بقولهم إن محمدا أذن نحلف له فيصدقنا .

روى ابن اسحق وابن المنذر عن ابن عباس قال : « كان نبتل بن الحرث يأتى

رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجلس إليه فيسمع منه ثم ينقل حديثه إلى المناققين ، وهو الذي قال لهم إنما محمد أذن ، من حديثه شيئاً صدقه فأُنزل الله الآية » .

وروى أنه اجتمع ناس من المناققين فيهم جلاس بن سويد بن صامت ومِحْشَ ابن حمير ووديعه بن ثابت فأرادوا أن يقعوا في النبي صلى الله عليه وسلم فنهى بعضهم بعضاً وقالوا نخاف أن يبلغ محمداً فيقع بكم ، وقال بعضهم : إنما محمد أذن نخاف له فيصدقنا فنزل (ومنها الذين يؤذون النبي) الآية .

## الإيضاح

(ومنها الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن) أى ومن المناققين جماعة يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعيبونه ويقولون هو أذن سامعة : أى يسمع من كل أحد ما يقوله ويقبله ويصدق به ، وهم يريدون بذلك أنه سليم القلب سريع الاغترار بكل ما يسمع دون أن يتدبر فيه ويميز بين ما هو جدير بالقبول لوجود أمارات الصدق فيه ، وما لا ينبغي قبوله ، وهذا عيب فى الملوك والرؤساء لما يترتب عليه من تفریب المناققين وإبعاد الناصحين ، وإنما قالوا ذلك لأنه كان عليه السلام يعاملهم بأحكام الشريعة كما يعامل عامة المؤمنين بالبناء على الظاهر ، فظنوا أنه يصدق كل ما يقال له .

(قل هو أذن خير لكم) أى إنه أذن ولكنه نعم الأذن ، لأنه أذن خير لا كما تزعمون ، فهو لا يقبل مما يسمعه إلا ما يعتقد أنه الحق وما فيه المصلحة للخلق ، وليس بأذن فى سماع الباطل كالكذب والنميمة والجدل والمراء ، وإذا سمعه من غير أن يستمع إليه لا يقبله ولا يصدق ما لا يجوز تصديقه كما هو شأن الملوك والزعماء الذين يتقرب إليهم أهل الأهواء بالسعاية لإبعاد الناصحين المخلصين عنهم ، وحملهم على إيذاء من يبتغون إيذاءه .

ثم بين سبحانه المراد من أذن الخير بقوله :

(يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) أى يصدق بالله وبما يوحى إليه مما فيه خيركم وخير

غيركم ، و يصدق المؤمنين الصادق الإيمان من المهاجرين والأنصار ، لما علمه من آيات إيمانهم الذى يوجب عليهم الصدق فيما يحدوثونه به .

وفى هذا إيماء إلى أنه لا يؤمن لهؤلاء المنافقين إيمان تسليم ولا يصدقهم فى أخبارهم وإن وكدها بالإيمان اغترارا بلفظه وأدبه صلى الله عليه وسلم إذ كان لا يواجه أحدا بما يكره ، وبمعاملته إياهم كما يعامل أمثالهم من عامة أصحابه .

( ورحمة للذين آمنوا منكم ) أى وهو رحمة للذين آمنوا منكم إيمانا صحيحا صادقا إذ كان سبب هدايتهم إلى مافيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، لالمن أظهر الإسلام وأسر الكفر نفاقا ، فهو نقمة عليه فى الدارين .

( والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ) أى والذين يؤذون الرسول بالقول أو بالفعل فجزاؤهم العذاب الشديد الإيلام .

وهذه الآية وما فى معناها دليل على أن إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم كفر إذا كان فيما يتعلق برسالته ، لأن ذلك ينافى الإيمان . وأما إيذاؤه فى شئونه البشرية والعادات الدنيوية فحرام لا كفر كإيذاء الذين كانوا يطيلون المكث فى بيوته لدى نساته بعد الطعام وفيهم نزل : « **إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ** » وإيذاء الذين كانوا يرفعون أصواتهم فى ندائه ويسمونه باسمه كما قال تعالى : « **يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** » .

وإيذاؤه صلى الله عليه وسلم بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى كإيذائه فى حال حياته كالخوض فى أبويه وآل بيته بما يعلم أنه يؤذيه لو كان حيا ، فالإيمان به صلى الله عليه وسلم مانع من تصدى المؤمن لما يعلم أو يظن أنه يؤذيه صلوات الله عليه إيذاء ما ، فهذا الذنب من أكبر الذنوب ومعصية من أعظم المعاصي .

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ  
كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَسْأَلُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ  
جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا، ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) .

### شرح المفردات

المُحَادَّةُ من الحد: وهو طرف الشيء كالمشاققة من الشق (بالكسر) وهو الجانب  
ونصف الشيء المنشق منه، وهما بمعنى المعاداة من العدو (بالضم) وهي جانب الوادي،  
لأن العدو يكون في غاية البعد عن يعاديه عداً البغض بحيث لا يتزاوران ولا يتعاونان  
فكان كلا منهما في شق وعدوة غير التي فيها الآخر، إذ هما على طرفي تقيض،  
وهكذا المنافقون يكونون في الجانب المقابل للجانب الذي يحب الله لعباده والرسول  
لأتمته من الحق والخير والعمل الصالح .

### المعنى الجملي

روى ابن المنذر عن قتادة قال: « ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال في شأن  
المتخلفين في غزوة تبوك الذين نزل فيهم ما نزل: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرفنا،  
وإن كان ما يقول محمد حقاً لهم شر من الحجر، فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله  
إن ما يقول محمد لحق، ولأنت شر من الحجر، وسعى بها الرجل إلى نبي الله صلى الله  
عليه وسلم فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: ( ما حملك على الذي قلت؟ )  
فجعل يتلعن ( يلعن نفسه ) ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول:  
اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فأنزل الله ( يحلفون بالله لكم ليرضوكم ) الآية» .

### الإيضاح

( يحلفون بالله لكم ليرضوكم ) هذا خطاب للمؤمنين أى يحلفون لكم إنهم  
ما قالوا ما نقل عنهم مما يورث أذاة النبي صلى الله عليه وسلم ليرضوكم، وقد كان من

دأبهم أن يتكلموا بما لا ينبغي أن يقال ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالإيمان ليعذروهم ويرضوا عنهم .

وفي كثرة الاعتذار والحلف للمؤمنين في كل ما يعملون أنهم متهمون به من قول أو فعل ليرضوهم فلا يجربوا الرسول صلى الله عليه وسلم - دليل على أنهم شعروا بظهور نفاقهم وافتضح أمرهم .

( والله ورسوله أحق أن يرضوه ) أى والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء من المؤمنين ، فإن المؤمنين قد يصدقونهم فيما يحلفون عليه إذا لم يكن كذبهم فيه ظاهرا معلوما باليقين ، ولكن الله لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فيوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم من أمور الغيب ما فيه المصلحة للمؤمنين .

وفي التعبير بـيرضوه دون يرضوها إشعار بأن إرضاء رسوله هو عين إرضائه تعالى ، لأنه إرضاء له في اتباع ما أرسله به .  
( إن كانوا مؤمنين ) أى إن كانوا مؤمنين كما يدعون ويحلفون - فليرضوا الله ورسوله وإلا كانوا كاذبين .

وفي الآية عبرة المنافقين في زماننا وفي كل زمان ، إذ يحلفون حين الحاجة إلى تأكيد أخبارهم فيما يحاولون به إرضاء الناس ، وبخاصة الملوك والوزراء الذين يتقربون إليهم فيما لا يرضى ربهم ، بل فيما يسخطه بأخس الوسائل وأقذر السبل .  
ثم ويحتم على ما أقدموا عليه مع علمهم بوخامة عاقبته بما سمعوا من الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله :

( ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ) أى ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الأمر الحق الذى لا شك فيه هو أن من يحادد الله ورسوله بتعدى حدوده أو يلمز الرسول في أعماله كقسمة الصدقات ، أو في أخلاقه وشمائله كقولهم هو أذن - فجرأؤه جهنم يصلها يوم القيامة خالدا فيها أبدا لا يخلص له منها .

( ذلك الخزي العظيم ) أى ذلك العذاب هو الذل والهوان العظيم الذى يصغر  
دونه كل خزي وذل فى الحياة الدنيا .

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ،  
قُلِ اسْتَهْزِئُوا ، إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ لِيَقُولُنَّ  
إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، قُلِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَكْفُرُونَ ؟  
(٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ  
نُعَذِّبُ طَائِفَةً بَأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) .

### شرح المفردات

الحذر : الاحتراز والتحفظ مما يخشى ويخاف منه ، والإخراج : إظهار الشيء  
الخفى المستتر كإخراج الحب والنبات من الأرض ، والخوض : الدخول فى البحر  
أوفى الوحل ، وكثر استعماله فى الباطل لما فيه من التعرض للأخطار ، والاعتذار :  
الإدلاء بالعذر ، وهو ما يراد به محو أثر الذنب وترك المؤاخذة عليه من عذر الصبي  
يعذره أى خنته تطهيراً له بقطع عذرتة أى قلفته ، والطائفة : الجماعة من الناس  
والقطعة من الشيء : يقال ذهبت طائفة من الليل ومن العمر ، وأعطاه طائفة من ماله .

### المعنى الجملى

جاءت هذه الآيات لبيان حال من أحوال المنافقين كشفت عنها غزوة تبوك ،  
أخرج ابن أبى شيبه وابن أبى حاتم عن مجاهد أن المنافقين كانوا يقولون القول فيما  
بينهم ثم يقولون عسى ألا يفشى علينا هذا . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : كانت  
هذه السورة تسمى الفاضحة فاضحة المنافقين ، وكان يقال لها المنبئة لأنها أنبأت  
بمثالهم وعوراتهم .

## الإيضاح

(يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم) أى يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما في قلوبهم أى قلوب المنافقين وتمتلك عليهم أستارهم وتفضى أسرارهم .

وهذا الحذر والإشفاق أثر طبيعي للشك والارتياب ، إذ هم كانوا شاكين مرتابين في الوحي ورسالة الرسول ولم يكونوا موقنين بشيء من الإيمان ولا من الكفر ، فهم مذنبون لاهم بالمؤمنين الموقنين ، ولا بالكافرين الجازمين بالكفر ، ولو كانوا على واحد منهما لما خطر لهم الخوف على بال ، إذ تكون قلوبهم مطمئنة بأحد الأمرين .

والخلاصة — إنهم يحذرون أن تنزل سورة في شأنهم وبيان حالهم ، فتكون في ذلك فضيحتهم وكشف عوراتهم وإنذارهم ما قد يترتب عليه من عقابهم .

(قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون) أى استهزؤا فإن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين أمركم .

ونحو الآية قوله : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ » .

ولا يخفى ما في هذا من التهديد والوعيد على فعلهم وكونه سببا لإخراجه تعالى ما يحذرون ظهوره من مخبئات سرائرهم .

( ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ) أى إنك إن سألتهم عن أقوالهم هذه يعتذرون عنها بأنهم لم يكونوا فيها جادين ولا منكرين ، بل هازلين لاعبين للتسلية والتلهي ، وكانوا يظنون أن هذا عذر مقبول لجهلهم أن اتخاذ الدين هجوا ولعبا كفر محض كما قال تعالى : « فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُونَ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ » وقال : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا يَوْمَ يَسْتَسْقِطُونَ » .

ويدخل في عموم الآية المبتدعون في الدين والذين يخوضون في الداعين إلى الكتاب والسنة ويستهنون بهم لاعتصامهم بهما .

أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوته إلى تبوك إذ نظر إلى أناس بين يديه يقولون : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيهات هيهات ، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فقال : ( احبسوا علىّ هؤلاء الركب ) فأتاهم فقال قلت كذا وقلتم كذا . قالوا يانبي الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم ما تسمعون » .

( قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ ) أى إن الخوض واللعب في صفات الله وشرعه وآياته المنزلة استهزاء بها ، إذ كل ما يلعب به فهو مستخفّ به ، وكل مستخفّ به فهو مستهزأ به .

وقصارى ذلك — ألم تجدوا ما تستهزئون به في خوضكم ولعبكم إلا الله وآياته ورسوله فقصرتم ذلك عليهم ، فهل ضاقت عليكم سبل القول ، فلم تجدوا ما تخوضون فيه وتلعبون غير هذا ، ثم بعدئذ تظنون أن معاذيركم بمثل هذا تقبل وتدلون بها بلا خوف ولا خجل .

( لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ) أى لاتذكروا هذا العذر لدفع هذا الجرم ، لأن الإقدام على الكفر لأجل اللعب لا ينبغى أن يكون ، فاعتذاركم إقراراً بذنوبكم فهو كما يقال : عذر أبيض من الذنب .

( إن نغف عن طائفة منكم نغذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ) أى إن نغف عن بعضكم لتوبتهم وإيمانهم إلى ربهم كخسّ بن مخيمر نغذب بعضاً آخر لإجرامهم وإصرارهم عليه .

وخلاصة ذلك — إن من تاب من كفره ونفاقه عفى عنه ، ومن أصر عليه وأظهره عوقب به .

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ  
عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ، نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ؛ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ  
الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ  
فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ  
كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخِلَاقِهِمْ،  
فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخِلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخِلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ  
كَالَّذِي خَاضُوا، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأُولَئِكَ  
هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ  
وَأَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ  
بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظَاهَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظَاهُونَ (٧٠).

### شرح المفردات

بعضهم من بعض : أى متشابهون فيه وصفا وعملا كما تقول أنت منى وأنا منك  
أى أمرنا واحد لا افتراق بيننا ، والمنكر: إما شرعى وهو ما يستتبعه الشرع وينكره ،  
وإما فطرى : وهو ما تستنكره العقول الراجحة والفطر السليمة لمنافاته للفضائل والمنافع  
الفردية والمصالح العامة ، وضده المعروف فى كل ذلك ، وقبض الأيدى : يراد به  
الكف عن البذل ، وضده بسط اليد ، نسوا الله : أى تركوا أوامره حتى صارت  
يمنزلة للنسى ، فنسيهم : أى فجازهم على نسيانهم بحرمانهم من الثواب على ذلك  
فى الآخرة ، والفاسيقون : أى الخارجون عن الطاعة المنسلخون عن فضائل الإيمان ،  
والوعد : يستعمل فى إعطاء الخير والشر والنافع والضار ، والوعيد خاص بالشر ،

واللعن: الإبعاد من الرحمة والإهانة والمذلة، والمقيم: الثابت الذي لا يتحول، بخلافهم: أى بنصيبهم من ملاذ الدنيا، وخضتم: أى دخلتم فى الباطل، وحبط العمل: فسد وذهبت فائدته، والخسارة فى التجارة: تقابل الربح فيها، وأصحاب مدين: قوم شعيب، والمؤتفكات واحدها مؤتفكة من الائتفك: وهو الانقلاب يجعل أعلى الشئ أسفله بالخسف، وهى قرى قوم لوط.

## المعنى الجملى

ذكر سبحانه فى هذه الآيات أنواعا وضروبا من قبائح المنافقين ذكرانهم وإناثهم، وقرنها بالوعيد الشديد بما أعد لهم من الجزاء فى زمرة إخوانهم الكفرة الذين من قبلهم على ما كانوا يقتربون من الفساد والإفساد، وتلاه بضرب المثل الذى يشرح حالهم لبيان السنن العامة فى روابط الاجتماع وآثار الأخلاق فى تلك الروابط.

## الإيضاح

(المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) أى إن أهل النفاق رجالا ونساء يتشابهون فى صفاتهم وأخلاقهم وأعمالهم كما قال تعالى فى آل إبراهيم وآل عمران «ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ» وقال الشاعر:

تلك العصا من هذه العُصِيَّةِ هل تلد الحَيَّةَ إلا حيه

ثم بين ذلك التشابه فقال:

(يأمرون بالمتكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم) أى إن بعضهم يأمر بعضا بالمتكر كالكذب والخيانة وإخلاف الوعد وتقض العهد كما جاء فى الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أتمن خان» رواه الشيخان عن أبى هريرة.

وينهون عن المعروف كالجهاد وبذل المال في سبيل الله للقتال كما حكى الله عنهم بقوله : « هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تَنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا » .

واقصر من منكراتهم الفعلية على الامتناع عن البذل ، لأنه شرها وأضرها وأقواها دلالة على النفاق ، كما أن الإنفاق في سبيل الله أقوى دلائل الإيمان .

( نسوا الله فانساهم ) أى نسوا أن يتقربوا إليه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ولم يعد يحظر بياهم أن له عليهم حق الطاعة والشكر ، واتبعوا أهواءهم ووساوس الشيطان ، تجازاهم على ما فعلوا بجرمانهم من لطفه وتوفيقه في الدنيا ، ومن الثواب في الآخرة .

( إن المنافقين هم الفاسقون ) أى إن المنافقين الناكبين عن الصراط المستقيم إلى سبيل الشيطان هم أكثر الناس فسوقا وخروجا من جميع الفضائل ، حتى من الكفار الذين يمتقدون صحة عقائدهم الباطلة ، فهم لا يبلغون مبلغهم في الفسوق والخروج من طاعة الله والانسلاخ من فضائل الفطر السليمة .

ثم بين سبحانه ما أعد لهم ولأمثالهم من العقاب جزاء لهم على أعمالهم فقال : ( وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها ) أى وعد الله هؤلاء جميعا نار جهنم يصلونها ما كثين فيها أبدا .

وقدم المنافقين في الوعيد على الكفار للإيذان بأنهم وإن أظهروا الإيمان وعملوا أعمال الإسلام - شر من الكفار ، ولا سيما المتدينين منهم بأديان محرفة أو منسوخة كأهل الكتاب .

( هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ) أى إن نار جهنم فيها من الجزاء ما يكفيهم عقابا لهم في الآخرة على أعمالهم ، وعليهم لعنة الله في الدنيا والآخرة بجرمانهم من رحمته التي لا يستحقها إلا المؤمنون الصادقون ، ولهم عذاب مقيم غير عذاب جهنم كالسموم الذي يلفح وجوههم ، والحميم الذي يصهر مافي بطونهم ، والضريع الذي

لايسمن ولا يغنى من جوع ، وحرمانهم من لقاء الله وكرامته والحجاب دون رؤيته كما قال : « كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ . ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ » .

( كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم ) أى أتم أيها المنافقون المؤذون لله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كأولئك المنافقين الذين خلوا من قبلكم فى أقوام الأنبياء ، فتتمت بأموالكم وأولادكم وغررتم بدنياكم كما فتنوا وغروا بها ، ولكنهم كانوا أشد منكم قوة وأكثر منكم أموالا وأولادا ، وقد كان جل مطلبهم وسعيهم هو التمتع بنصيبهم وحظهم الدنيوى من الأموال والأولاد ، فأطغتهم الدنيا وأغرتهم لذاتها ، ولم يكن لهم مقاصد شريفة من الحياة كالتى يقصدها أهل الإيمان بالله ورسله والدار الآخرة من إعلاء كلمة الحق وإقامة ميزان العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

( فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ) أى وقد سلكتم أيها المنافقون سبيلهم فى الاستمتاع بخلاقكم ، فأنتم فعلتم بدنياكم ودنياكم كما فعل الذين كانوا من قبلكم ، ولم تفضلوا عليهم بشيء من الاسترشاد بكلام الله وهدى رسوله ، إذ لم تعملوا شيئا من الفضائل التى تزكى النفوس وتجعلها أهلا للسعادة ، فكنتم أجدر بالعقاب منهم ، لأنهم أوتوا من القوة والأموال فوق ما أوتيتم ، ولم يروا من آيات الله ما رأيتم .

والخلاصة — إنكم حذوتم حذوهم وسلكتم سبيلهم مع توافر الدواعى على فعل ضد ما تعملون .

( وخضتم كالذى خاضوا ) أى ودخلتم فى الباطل كما دخلوا على ما بين حالكم وحالهم من الفوارق التى كانت تقتضى أن تكونوا أهدى منهم سبيلا .

( أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ) أى إن أولئك المستمتعين بخلاقهم وحظهم والخائضين فى الباطل حبطت أعمالهم الدنيوية

فكان ضررها أكبر من نفعها لهم ، لإسرافهم وإفسادهم في الأرض ، وكذلك أعمالهم الدينية في الآخرة من عبادات وصلة رحم وصدقة وقرى ضيف ، فلم يكن لهم أجر عليها يتقدم من عذاب النار ويدخلهم الجنة ، إذ شرط قبولها في الآخرة الإيمان والإخلاص ، فهم خسروا في مظنة الربح والمنفعة .

ونحو الآية قوله : « هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا . الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيدهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ؟ » .

ثم نبههم وحذرهم سوء عاقبة أعمالهم فقال :

( ألم يأتكم نبي الله من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ) أى ألم يأت أولئك المنافقين والكفار الذين كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم خبر الأمم الذين كانوا من قبلهم حين عصوا رسلهم وخالفوا أمر ربهم فأخذهم العذاب كاطوفان الذى أغرق قوم نوح ، والريح العقيم التى أهلكت عادا قوم هود ، والصيحة التى أخذت ثمود ، والعذاب الذى هلك به النمرود الذى حاول إحراق إبراهيم ، والخسف الذى نزل بقرى قوم لوط وهم فيها .

وما كان من سنة الله ولا من مقتضى عدله وحكمته أن يظلمهم بما حل بهم من العذاب ، وقد أعذرهم وأنذرهم ليجتنبوه ، ولكن كانوا يظلمون أنفسهم بجحودهم وعنادهم وعدم مبالاةهم بإنذار رسلهم .

وقد ضرب هذا المثل للكافرين برسائته صلى الله عليه وسلم والمنافقين ، ليبين لهم أن سنة الله فى عباده واحدة لا ظلم فيها ولا محاباة ، فلا بد أن يحل بهم من العذاب مثل ما حل بأمتهم من أقوام الرسل إن لم يتوبوا .

وقد أهلك الله تعالى أكبر الجاحدين المعاندين منهم فى أول غزوة وهى غزوة بدر ، ثم خذل من بعدهم فى سائر الغزوات ، وما زال المنافقون يكيدون له فى السر حتى فضحهم الله بهذه السورة ، فتاب أكثرهم ومات زعيمهم عبد الله بن أبى بغيظه وكفره ، ولم تقم للنفاق قائمة من بعده .

وبهذا التخصيص كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير أمة أخرجت للناس .  
نشر الله بهم أعلام دينه حتى سادوا العالم جميعه .

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ  
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَّ اللَّهُ  
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينٍ  
طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أفعال المناقطين الخبيثة وذكر ما أعد له من العذاب  
فى الدنيا والآخرة - قفى على ذلك بذكر صفات المؤمنين الذين زكت نفوسهم وطهرت  
سراهم وما أعد له من الثواب الدائم والنعيم المقيم .

### الإيضاح

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) الولاية ضد العداوة ، وتشمل ولاية  
النصرة وولاية الأخوة والمودة ، ونصرة النساء تكون فى دون القتال من الأعمال  
المتعلقة بتعبئة الجيوش من الأمور المالية والبدنية ، وكان نساء النبى صلى الله عليه وسلم  
ونساء أصحابه يخرجن مع الجيش يسقين الماء ويجهزن الطعام ويحرضن على القتال  
ويرددن المنهزم من الرجال قال حسان :

تظل جياتنا ممتطراتٍ . تُلطمهن بأحمر النساء

وقال فى وصف المؤمنين : بعضهم أولياء بعض ، وفى وصف المنافقين بعضهم

من بعض - لأن المؤمنين بينهم أخوة ومودة وتعاون وتراحم حتى شبه النبي صلى الله عليه وسلم جماعتهم بالجد الواحد ، وبالبنان يشد بعضه بعضا ، وبينهم ولاية النصرة في الدفاع عن الحق والعدل وإعلاء كلمة الله .

أما المنافقون فيشبه بعضهم بعضا في الشكوك والذبذبة وما يتبعها من الجبن والبخل ، وهما يمتعان من التناصر ببذل النفس والمال ، وقصارى أمرهم التعاون بالكلام ومالا يشق من الأعمال ، ومن ثم أكذب الله منافق المدينة في وعدهم لليهود حلفائهم بنصرهم على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إذا قاتلهم في قوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُكُمْ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ لَهُمْ لَكَذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَإِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولِيَنَّ الْأُذُنُ الْأُولَى مَا لَهُمْ شَأْنٌ مِمَّنْ كَفَرُوا » .

(يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر و يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و يطيعون الله ورسوله ) وصف الله المؤمنين بصفات خمس تضاد مثلها في المنافقين .

( أ ) إنهم يأمرون بالمعروف والمنافقون يأمرون بالمنكر .

( ب ) إنهم ينهون عن المنكر والمنافقون ينهون عن المعروف ، وهاتان الخصلتان

هما سياج الفضائل ومنع فشو الرذائل .

( ح ) إنهم يؤدون الصلاة على أقوم وجه وأكمله بخشوع وإخبات لله وحضور

القلب في مناجاته ، والمنافقون إذا قاموا إلى الصلاة قاموا وهم كسالى يراءون الناس .

( د ) إنهم يعطون الزكاة المفروضة عليهم وما وفقوا له من التطوع ، والمنافقون

يقبضون أيديهم ، والمنافقون وإن كانوا يصلون ، لم يكونوا يقيمون الصلاة ، وكانوا

يزكون وينفقون ولكن خوفا أو رياء لاطاعة الله تعالى كما قال سبحانه: « وَمَا مَنَعَهُمْ

أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ  
إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ .

(هـ) إنهم يستمرون على الطاعة بترك ما نهوا عنه وفعل ما أمروا به بقدر الطاقة ،  
وبضد ذلك المنافقون فإنهم فاسقون خارجون عن حظيرة الطاعة كما تقدم .

ثم ذكر ما يكون لهم من حسن العاقبة وعظيم الجزاء على جميل أعمالهم فقال :  
( أولئك سيرحهم الله ) أى إنه تعالى يتعهدهم برحمته فى الدنيا والآخرة باستمرارهم  
على طاعته و طاعة رسوله ، ويقابل هذا نسيانه تعالى للمنافقين ولعنه إياهم .

( إن الله عزيز حكيم ) أى إنه تعالى عزيز لا يمتنع عليه شئ من وعده ولا وعيده ،  
حكيم لا يضع شيئاً منهما فى غير موضعه .

وبعد أن بين صفاته ورحمته لهم إجمالاً - بين ما وعدهم به من الجزاء المفسر  
لرحمته تفصيلاً فقال :

( وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها  
ومساكن طيبة فى جنات عدن ) الجنات : البساتين الملتفة الأشجار التى تجن ما تحتها  
أى تغطيه وتستره ، وجريان الأنهار من تحت أشجارها مما يزيد جمالها ، والمساكن  
الطيبة فى جنات عدن هى الدور والخيام التى يطيب لساكنيها المقام فيها لاحتوائها  
على ما يطلبون من الأثاث والرياش والزينة التى بها تتم راحة المقيم فيها وسروره ،  
والعدن : الإقامة والاستقرار ، يقال عدن فى مكان كذا إذا أقام فيه وثبت ، جنات  
عدن هى جنات الإقامة والخلود كقوله : « جَنَّةُ الْخُلْدِ - جَنَّةُ الْمَأْوَى » وقيل إنه  
منزل من منازل دار النعيم كالقردوس الذى هو أوسط الجنة أو أعلاها .

روى عن أبى هريرة « إن فى الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين فى سبيله ،  
كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض ، فإذا سألت الله فأسأله القردوس فإنه  
أوسط الجنة وأعلى الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن » .

( ورضوان من الله أكبر ) رضوان الله هو مقام رؤيته تعالى التى تكمل بها معرفته

والإنسان جسد وروح ، ففي الجنات ومساكنها أعلى النعيم الجسماني ، ورضوان الله هو أعلى النعيم الروحاني .

( ذلك هو الفوز العظيم ) أى ذلك الوعد بالنعيم الجسماني والروحاني هو الفوز العظيم الذي يُجْزَى به المؤمنون المخلصون ، لاغيره من حظوظ الدنيا الفانية التي يتكالب عليها الكفار والمنافقون .

وقد ورد في وصف الجنة ودرجاتها أحاديث بعضها موضوع ، وبعضها منكر ، ومن ذلك ما روى عن أبي هريرة وعمران بن حصين أنهما قالوا لمن سألهما : على الخير سقطت ، وأنهما سألا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرنا وصفا طويلا ، منه أنه يوجد هناك ألوف من البيوت في كل منها ألوف من الحور العين ، وهو حديث منكر من دسائس الوضعيين ككعب الأحمق وغيره . قال ابن القيم : لم يثبت في نساء الجنة حديث صحيح بأكثر من زوجين لكل رجل .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ  
وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ (٧٣) يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ  
وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ وَمَا تَقَمُّوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ  
وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ  
اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ  
وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) .

### شرح المفردات

الجهاد ، والمجاهدة : استفرغ الجهد والوسع في مدافعة العدو ، وهو ثلاثة أضرب :  
مجاهدة العدو الظاهر . مجاهدة الشيطان . مجاهدة النفس والهوى ، ويشير إلى هذه

كلها قوله تعالى : « وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ - وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » وقال صلى الله عليه وسلم « جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم » وقال « جاهدوا الكفار بأيديكم وأستكم » والجهاد باللسان : إقامة الحجة والبرهان ، والجهاد باليد : الجهاد بالسيف وكل الوسائل الحربية ، والغلظة : الخشونة والشدة في المعاملة ، وهى ضد اللين . ونقم منه الشيء : أنكره وعابه عليه .

### المعنى الجملى

بعد أن وصف الله تعالى المؤمنين بشريف الصفات ، ووعدهم بأجزل الثواب وأرفع الدرجات - أعاد الكرة إلى تهديد المنافقين وإنذارهم بالجهاد كالكفار المجاهرين بكفرهم إذا هم استرسلوا في إظهار ما ينافى الإسلام من الأقوال والأفعال كالقول الذى قالوه وأنكروه بعد أن أظهره الله عليه وكذبهم في إنكارهم .

وجهادهم ألا يعاملوا معاملة المؤمنين الصادقين ، فيقابلون بالغلظة والتجهم لا بالطلاقة والبشر إلى نحو ذلك مما سيذكر بعد .

### الإيضاح

( يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغظ عليهم ) أى ابذل أيها النبي جهدك في مقاومة هاتين الطائفتين اللتين تعيشان بين ظهرائيك بمثل ما يبذلان من جهد في عداوتك ، وعاملهما بالغلظة والشدة التى توافق سوء حالهما .

وقد اتفق الأئمة على أن المنافقين يعاملون بأحكام الشريعة كالمسلمين الصادقين ، فلا يقاتلون إلا إذا ارتدوا أو بغوا على جماعة المسلمين بالقوة أو امتنعوا من إقامة شعائر الإسلام وأركانها . وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : جهاد الكفار بالسيف ، وجهاد المنافقين باللسان : أى بالحجة والبرهان .

وكان كفار اليهود يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم حتى بتحريف السلام عليه بقولهم (السام عليكم) ، والسام الموت فيقول : (وعليكم) ثم تكرر نقضهم للعهد حتى كان من أمرهم ما تقدم ذكره ، وكان يعامل المنافقين باللطف واللين بناء على حكم الإسلام الظاهر ، فجرّأهم هذا على أذاه بنحو قولهم (هو أذن) فأمره الله في هذه الآية بالغلظة على الفريقتين في جهاده التأديبي لهم ، لأن أمثالهم لاعتلاج له إلا هذا كما قال :

ووضع الندى في موضع السيف بالاعلا مضراً كوضع السيف في موضع الندى وهو جهاد فيه مشقة عظيمة ، لأنه موقف وسط بين رحمة ولينه للمؤمنين المخلصين ، وشدته في قتاله لأعدائه المحاربين ، يجب فيه إقامة العدل واجتناب الظلم ، وأثر عن عمر أنه قال : (أذلوهم ولا تظلموهم) .

وفي هذه الغلظة تربية للمنافقين وعقوبة لهم يرجى أن تكون سبباً في هداية من لم يطبع الكفر على قلبه وتحط به خطايا نفاقه ، فتتطيب وجهه صلى الله عليه وسلم في وجوههم تحقير لهم يتبعه فيه المؤمنون ، ومن يرأه محقتر بين قومه وأبناء جنسه من الرئيس وغيره يضيق صدره ، ويحاسب نفسه ويثب إلى رشده ويتب إلى ربه .

وهذه السياسة الحكيمة كانت سبب توبة أكثر المنافقين وإسلام ألاف الألاف من الكافرين .

(ومأواهم جهنم وبئس المصير) أى لا مأوى لهم يلجئون إليه إلا دار العذاب التى لا يموت من أوى إليها ، ولا يحيا حياة طيبة ، وبئس المصير هى «إنها ساءت مُستقرّاً ومُقماً» .

والخلاصة — إنهم قد اجتمع لهم عذابان : عذاب الدنيا بالجهاد والغلظة ، وعذاب الآخرة بأن تكون جهنم مأواهم .

ثم ذكر سبحانه الجرائم الموجبة لجهادهم كالكفار ، وهى أنهم أظهروا الكفر بالقول وهوا بشرّ ما يغرى به من الفعل ، وهو الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وقد أظهره الله عليه وأنبأه بأنهم سينكرونه إذا سألهم ويحلفون على إنكارهم ليصدقهم كدأبهم من قبل ، فقد كانوا يحلفون للمؤمنين ليرضوهم كما قال تعالى « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً » ويخوضون في آيات الله وفي رسوله استهزاء خرجوا به من الإيمان الذي يدعونه إلى الكفر الذي يكتُمونه فقال :

( يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهو بما لم ينالوا ) أى يحلفون بالله إنهم ما قالوا تلك الكلمة التي نسبت إليهم ، والله يكذبهم ويثبت أنهم قد قالوا كلمة الكفر التي رويت عنهم ، ولم يذكر القرآن هذه الكلمة لأنه لا ينبغي ذكرها ، ولثلاثا يتعبد المسلمون بتلاوتها ، وأصح ما قيل فيها ما رواه ابن جرير والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا في ظل شجرة فقال : إنه سيأتكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان ، فإذا جاء فلا تكلموا ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله فقال له : علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا ، فتجاوز عنهم فأنزل الله : يحلفون بالله ما قالوا الآية » .

أما همّهم بما لم ينالوا فهو اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة منصرفه من تبوك - ذلك أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلا من تبوك إلى المدينة ، حتى إذا كان ببعض الطريق مكر برسول الله صلى الله عليه وسلم ناس من المنافقين فتأمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق ، فمابلعوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه ، فلما غشيتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر خبرهم فقال : من شاء منكم أن يأخذ ببطن الوادى فإنه أوسع لكم . وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة وأخذ الناس ببطن الوادى إلا نفر الذين هموا بالمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا وقد هموا بأمر عظيم ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه ، وأمر عمار أن يأخذ بزمام الناقة ، وأمر حذيفة أن يسوقها ، فبينما هم يسرون إذ سمعوا وكرة القوم من وراءهم قد

غشوه ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر حذيفة أن يردهم ، وأبصر حذيفة غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع ومعه مِحْجَنٌ ، واستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضربا بالحقن ، وأبصر القوم وهم مثلثمون ولا يشعر إلا أن ذلك فعل المسافر ، فأرعبهم الله سبحانه حين أبصروا حذيفة وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه فأسرعوا حتى خالطوا الناس ، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أدركه قال : « اضرب الراحلة يا حذيفة وامش أنت يا عمار وراءها ، فأسرعوا حتى استنوا بأعلاها ، نخرجوا من العقبة ينتظرون الناس ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحذيفة « هل عرفت من هؤلاء الركب أحدا ؟ » قال حذيفة عرفت راحلة فلان وفلان ، وقال : كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم مثلثمون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل علمت ما كان شأن الركب وما أرادوا ؟ » قالوا : لا والله يا رسول الله ، قال : « فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا طلعت في العقبة طرخوني منها » قالوا : أو لا تأمر بهم يا رسول الله إذا فنضرب أعناقهم ؟ قال : « أكره أن يتحدث الناس ويقولوا : إن محمدا قد وضع يده في أصحابه » فسامهم لها وقال : « اكتبهم » .

والصحيح في عددهم ما رواه مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « في أمتي اثنا عشر مناققا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط ، ثمانية منهم تكفيكم الدُّبَيْلَةُ ( خراج ودُمَلٌ كبير تظهر في الجوف تقتل صاحبها كثيرا ) سراج من النار يظهر في أكتافهم حتى ينجم من صدورهم » أي كأنه سراج من النار .

( وما نعموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ) أي وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام وبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم ، شيئا يقتضى الكراهة والهمم بالانتقام - إلا إغناء الله تعالى إياهم ورسوله من فضله بالغنائم التي هي عندهم أحب الأشياء لديهم في هذه الحياة ، وكانوا كسائر الأنصار قراء فأغناهم

الله ببعثة الرسول ونصره وبما آتاه من الغنائم كما وعده ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم للأَنْصار « كُنْتُمْ عَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي » .

( فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَّهُمْ ) أَى فَإِنْ يَتُوبُوا مِنَ النِّفَاقِ وَمَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ مَسَاوَى الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، يَكُنْ ذَلِكَ الْمُنَابِ خَيْرًا لَّهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَمَا فِي الدُّنْيَا فَبِمَا فِيهِ مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى بِلَائِهِ ، وَالْعَمَلِ لِمَا فِيهِ السَّعَادَةُ فِي الْآخِرَةِ ، وَمَعَاشِرَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَشَاهِدَةِ فِضَائِلِهِ وَأَخُوَّةِ الْمُؤْمِنِينَ بِبَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ وَمَا فِيهَا مِنَ الْوُدِّ وَالْوَفَاءِ الْكَامِلِ وَالإِثَارِ عَلَى النَّفْسِ إِلَى نَحْوِ ذَلِكَ . وَأَمَا فِي الْآخِرَةِ فَبِمَا عَلِمْتَ مِمَّا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْجَنَاتِ الَّتِي تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالْمَسَاكِنَ الطَّيِّبَةَ .

( وَإِنْ يَتُوبُوا يَعْزِبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ) أَى وَإِنْ أَعْرَضُوا عَمَّا دَعَا إِلَيْهِ مِنَ التَّوْبَةِ وَأَصْرُوا عَلَى النِّفَاقِ وَمَا يَنْشَأُ مِنْهُ مِنَ الْمَسَاوَى الْخَلْقِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ - يَعْزِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا بِمَا يَلْزَمُ قُلُوبَهُمْ مِنَ الْخُوفِ وَالْمَلْحِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ « لَوْ يَجِدُونَ مَآجِدًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ » . وَقَالَ : « يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ » فَهَمَّ فِي جَزَعٍ دَائِمٍ وَهُمْ مَلَاذِمٌ .

وَأَمَا فِي الْآخِرَةِ فَحَسْبُكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ وَعِيدِهِمْ بِتِلْكَ النَّارِ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْتَدَةِ . ( وَمَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ) أَى وَمَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا مِنْ يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ وَلَا مِنْ يَنْصُرُهُمْ وَيُدَافِعُ عَنْهُمْ ، إِذْ مِنْ خَذَلَهُ اللَّهُ فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَجِيرَهُ . أَمَا فِي الدُّنْيَا فَأَغْلَقْتَ فِي وُجُوهِهِمُ الْأَبْوَابَ ، فَقَدْ خَصَّ اللَّهُ وِلَايَةَ الْأَخُوَّةِ وَالْمُودَةِ وَالنَّصْرَةِ بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ دُونَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ، وَقَدْ قَضَى الْإِسْلَامَ عَلَى جَوَارِ الْجَاهِلِيَّةِ وَعَلَى أَحْلَافِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْحِجَازِ بِالْقَتْلِ وَالْجَلَاءِ .

وَأَمَا فِي الْآخِرَةِ فَقَدْ تَظَاهَرَتْ النُّصُوصُ عَلَى أَنَّهُ لَاوَلِيٌّ وَلَا ظَلِيمٌ لِلْكَفَّارِ

وَالْمُنَافِقِينَ .

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِن آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) .

### المعنى الجملى

هذه الآيات بيان لحال طائفة أخرى من المنافقين أغناهم الله بعد فقر وإملاق ، وقد كانوا يلجئون إلى الله وقت البأساء والضراء فيدعونه ويعاهدونه على الشكر له والطاعة لشرعه إذا هو كشف ضرهم وأغناهم بعد فقرهم ، فلما استجاب دعاءهم نكصوا على أعقابهم وكفروا بالنعمة وهضموا حقوق الخلق - ومثل هؤلاء يوجدون في كل زمان ومكان .

### الإيضاح

(ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين) أى ومن المنافقين من أعطى الله عيده وميثاقه لئن أغناهم من فضله مالا وثروة ليشكرن له نعمته بالصدقة منها ، وليعملن عمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم به والإنفاق فى سبيل الله كإعداد العدة للجهاد وبذل المستطاع لخير الأمة وسعادتها بما يرقى بها فى مختلف شؤونها .

(فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون) أى فلما رزقهم الله وأعطاهم ما طلبوا - بخلوا بما آتاهم وأمسكوه فلم يتصدقوا منه بشيء ، وتولوا وانصرفوا عن الاستعانة به على الطاعة وإصلاح حالهم وحال أمتهم كما عاهدوا الله عليه ، ولم يكن

ذلك التولى عارضا طارئا ، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوة بجواز نفسى ملك عليهم أمرهم ومنعهم عن التصدق ، بحيث إذا ذكروا بما يجب عليهم لا يذكرون ، وإذا دعوا لا يستجيبون .

( فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ) قال الليث : يقال أعقبت فلانا ندامة إذا صيرت عاقبة أمره كذلك كما قال الهذلى :

أودى بنى وأعقبونى حسرة      بعد الرقاد وعبرة لا تُقلع  
أى أعقبهم ذلك البخل والتولى بعد العهد الموثق بأوكد الأيمان نفاقا فى قلوبهم متمكنا منها وملازما لها إلى يوم الحساب فى الآخرة لأنه لارجاء معه فى التوبة .  
ثم ذكر سيدين هما من أخص أوصاف المنافقين - إخلاف الوعد والكذب فقال :  
( بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ) أى إن سنة الله فى البشر قد جرت بأن العمل بما يقتضيه النفاق يمكن النفاق فى القلب ويقويه ، كما أن العمل بمقتضى الإيمان يزيد الإيمان قوة ورسوخا فى النفس ، وهكذا جميع الأخلاق والعقائد تقوى وترسخ بالعمل الذى يصدر منها .

فهؤلاء لما كان قد رسخ فى نفوسهم خلف الوعد واستمرار الكذب - مكن ذلك النفاق فى قلوبهم بمقتضى سننه وتقديره .

أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس فى قوله ( ومنهم من عاهد الله ) الآية : أن رجلا من الأنصار يقال له ثعلبة أتى مجلسا فأشبههم قال : لئن آتاني الله من فضله آتيت كل ذى حق حقه وتصدقت وجعلت منه للقرابة ، فابتلاه الله فأتاه من فضله ، فأخلف ما وعده ، فأغضب الله بما أخلفه ما وعده ، فقص الله شأنه فى القرآن اه .

( ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ) أى ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يعلنون غير ما يسرون ، ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ولز الرسول - أن الله يعلم السر النكامن فى أعماق نفوسهم الذى يخصون به من يتقون به

من هو مشارك لهم في النفاق ، وأن الله يعلم الغيوب كلها لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فكيف يكذبون على الله فيما يعاهدونه به وعلى الناس فيما يحلفون عليه باسمه .

الَّذِينَ يَمُرُّونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ، سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ، وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) .

### شرح المفردات

لمزه : عابه ، والمطَّوع : أى المتطوع ، وهو من يؤدى ما يزيد على الفريضة ، والصدقات : واحدها صدقة ، والجهد ( بالضم والفتح ) الطاقة : وهى أقصى ما يستطيعه الإنسان ، وسخر منه : استهزأ به احتقارا .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه بُخل المنافقين وشحهم بأموالهم حتى بعد أن عاهدوا الله على الصدقة إذا آتاهم من فضله - أردف ذلك ببيان أنهم لم يقتصروا في جرمهم على هذا الحد ، بل جاوزوا ذلك إلى لَمَزَ الْمُؤْمِنِينَ و ذمهم في صدقاتهم غنيهم وفقيرهم ، وأنهم لهذا قد وصلوا إلى حد لم يعد لهم فيه أدنى حظ من الإسلام ، ولا أدنى نفع من استغفار الرسول ودعائه لهم لرسوخهم في الكفر بالله ورسوله وعدم الرجاء في إيمانهم .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى مسعود البدرى قال : لما أمرنا بالصدقة

كنا نتجامل (يحمل بعضنا لبعض بالأجر) فجاء أبو عقيل (اسمه الحبجاح) بنصف صاع وجاء إنسان بأكثر منه ، فقال المنافقون : إن الله غنى عن صدقة هذا ، وما فعل الآخر هذا إلا رياء . فنزلت (الذين يلمزون) الآية .

وروى ابن جرير عن عكرمة قال : حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة في غزوة تبوك فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف ، وقال يارسول الله : مالى ثمانية آلاف جئتك بنصفها وأمسكت نصفها فقال « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » وتصدق يؤمئذ عاصم بن عدى بمائة وسق (ثلثائة وعشرين رطلا) من تمر ، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر ، الحديث .

## الإيضاح

(الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات) أى أولئك هم الذين يلمزون المتطوعين من المؤمنين ويعيبونهم في أمر الصدقات التي هي أظهر آيات الإيمان ، ويذمونهم في أكمل فضائلهم ويقولون ما فعلوها لوجه الله وإنما فعلوها رياء الناس . فلمزم هنا في مقدارها وصفة أدامها لافيتها نفسها ، واللمز هناك في قسمتها ، وقد جاء في بعض الروايات « أن النبي صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة فجاء عمر بصدقة ، وجاء عثمان بصدقة عظيمة وكثير من أصحابه بصدقات ، فقال المنافقون : ما أخرج هؤلاء صدقاتهم إلا رياء ، وأما أبو عقيل فإنه جاء بصاعه ليذكر بنفسه» .

(والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم) أى ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم : أى الفقراء الذين تصدقوا بقليل هو مبلغ جهدهم وآخر طاقتهم ، فيستهزئون بهم احتقارا لما جاءوا به وعدّاه من الحماقة والجنون .

وخص هؤلاء بالذكر وإن كانوا داخلين في المتطوعين ، لأن مجال لمزم عند المنافقين أوسع ، والسخرية منهم أشد ، وهم أهل الإجلال والإكبار والأحق بالثناء عند المؤمنين .

(سخر الله منهم) أى فجازاهم الله بمثل ذنوبهم ، فجعلهم سخرية للمؤمنين وللدناس  
أجمعين بفضيحتهم فى هذه السورة ببيان مخازيهم وعيوبهم .  
(ولهم عذاب أليم) تقدم بيانه فى هذه السورة بهذا اللفظ وغيره .  
ثم بين سبحانه عقابهم وسوآهم بالكافرين فقال :

(استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) أى إن  
تدع لهؤلاء المنافقين وتسال الله أن يستر عليهم ذنوبهم بالعفو عنها وترك فضيحتهم بها  
أو لا تدع فلن يستر الله عليهم ولن يعفو عنهم ، ولكنه يفضحهم على رؤوس الأشهاد  
يوم القيامة .

ويراد بالسبعين فى مثل هذا الأسلوب الكثرة لا العدد المعين ، فالمراد أنك مهما  
أكثرت من الاستغفار لهم فلن يستجاب لك فيهم ، وقد كان صلى الله عليه وسلم  
يستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله فيتوب عليهم ويغفر لهم ، كما كان يدعو للمشركين  
كلما اشتد إيذاؤهم له ويقول « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » رواه ابن ماجه .

(ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) أى ومن أجل جحودهم وحدانية الله وعدم  
إيقانهم بما وصف به تعالى نفسه من العلم بالسرى والنجوى وسائر الغيوب ، وجحودهم  
وحيه لرسوله صلى الله عليه وسلم وبما أوجبه من اتباعه ، وجحودهم بعنه للموتى وجزاءهم  
على أعمالهم - لم يعف عن ذنوبهم ولا عما دشوا به أنفسهم من الآثام والمعاصى .

(والله لا يهدي القوم الفاسقين) أى إن سنة الله قد جرت فيمن أصروا على  
فسوقهم وتمردوا فى نفاقهم وأحاطت بهم خطاياهم - أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والإيمان .  
فلا يهتدون إليها سبيلا .

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا  
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ

أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا  
 جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ  
 فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا،  
 إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) .

### شرح المفردات

الفرح : الشعور بارتياح النفس وسرورها ، والخلاف والخالفة بمعنى ، ويستعمل  
 خلفه بمعنى بعده ، يقال جلست خلاف فلان وخلفه : أى بعده ، ومنه : « وَإِذَا  
 لَا يَلْبِثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا » والخلفون من خلف فلانا : أى تركه خلفه ،  
 ويفقهون : أى يعقلون ، والخالف : المتخلف .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر بعض سوءات المنافقين من اعتذارهم للمؤمنين عن الخروج معهم  
 للقتال وأزهم في قسمة الصدقات وفي إعطائها ، عاد إلى الكلام في ذكر حال الذين  
 تخلفوا عن القتال في غزوة تبوك وظلوا في المدينة ، وبيان ما يجب من معاملة هؤلاء  
 بعد الرجوع إليها ، وقد نزل ذلك أثناء السفر .

### الإيضاح

( فرح الخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ) أى فرح الخلفون من هؤلاء المنافقين  
 الذين تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند خروجه إلى غزوة تبوك بقعودهم  
 في بيوتهم مخالفين الله ورسوله ، وإنما فرحوا بذلك لأنهم لا يؤمنون بما في الخروج  
 معه من أجر عظيم لا تدرك معه راحة القعود في البيوت شيئاً .

( وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون ) أى وقالوا لإخوانهم في النفاق إغراء لهم بالثبات على المنكر وتثبيط لعزائم المؤمنين : لا تنفروا في الحر ، قل لهم أيها الرسول مفنّدا آراءهم ومسفها أحلامهم : نار جهنم التي أعدها الله لمن عصاه وعصى رسوله أشد حرا من تلك الأيام في أوائل فصل الحريف ، إذ هذا الحر مما تحتمله الجسوم ولا يلبث أن يخف ويذول ، ونار جهنم حرها شديد دائم يفتح الوجوه وينضج الجلود ، فهم لو كانوا يعقلون ذلك ويعتبرون به لما خالفوا وقعدوا ولما فرحوا بعودهم بل لحزنوا وبكوا كما فعل المؤمنون الذين أرادوا الخروج والنفقة فمجزوا .

( فليضحكوا قليلا وليبكو كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون ) أى إن الأجدر بهم على حسب ما تقتضيه حالهم وتستوجبه جريمتهم أن يضحكوا قليلا ويبكوا كثيرا لو كانوا يفقهون ما فاتهم بالتخلف من أجر ، وما سيحملونه في الآخرة من وزر ، وما يلاقونه في الدنيا من خزي وضرّ ، جزاء لهم على ما اجترحوا من العصيان ، وارتكبوا من الإثم والبهتان ، وكما يدين الفتى يدان .

ونحو الآية قوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا : يظهر النفاق ، وترتفع الأمانة ، وتقبض الرحمة ، ويتهم الأمين ، ويؤتمن غير الأمين ، أناخ بكم الشرف الجون - الشرف بضمين جمع أشارف وهي الناقة الكبيرة السن ، والجون السود - الفتن كأمثال الليل المظلم » .

ثم بين ما يجب أن يعاملوا به في الدنيا قبل الآخرة مما يقتضى تركهم للفرح والغبطة في دنياهم بالتمتع بأحكام الإسلام فقال :

( فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا ) أى فإن ردك الله من سفرك هذا إلى طائفة من المناقطين المتخلفين ، فاستأذنوك ليخرجوا معك في غزاة أو غيرها مما تخرج لأجله ، فقل لهم : لن تخرجوا معي أبدا ولن يكون لكم أبدا شرف الصحبة بالخروج معي للجهاد

فى سبيل الله مادمت ودمتم ، ولن تقاتلوا معى عدوا لابلخروج والسفر إليهم ولا بغير ذلك كأن يهاجم المؤمنون فى عقر دراهم كما حدث يوم وقعة الأحزاب .  
ثم بين سبب النهى عن صحبتهم فقال :

( إنكم رضيتم بالعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ) أى إنكم رضيتم لأنفسكم بجزى العود أول مرة دعيتم فيها إلى الخروج ، إذ طلب إليكم أن تنفروا فلم تنفروا وعصيتم الله ورسوله ، فاقعدوا أبدا مع الذين تخلفوا عن نفر من الأشرار المفسدين الذين خرجوا عن سبيل المهتدين ، وربما كان المراد بالخالفين الصبيان والعجزة والنساء الذين لا يكلفون القيام بشرف الجهاد دفاعا عن الحق وإعلاء لكلمة الله .

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا  
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ  
وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ  
كَافِرُونَ (٨٥) .

### المعنى الجملى

بعد أن أمر الله رسوله بإهانة المنافقين وإذلالهم بمنعهم من الخروج معه إلى الغزوات - قفى على ذلك بذكر إهانة أخرى لهم وهى منع الرسول أن يصلى على من مات منهم بعد إعلامه بحقيقة أمرهم ، وفى مقدمتهم زعيمهم الأكبر عبد الله بن أبى - والاثنى عشر الذين أرادوا اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم .

### الإيضاح

( ولا تصلى على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ) أى لا تصلى أيها الرسول بعد الآن على أحد من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك ، ولا تتول دفنه والدعاء له بالثبوت كما تقوم على قبور المؤمنين عند دفنهم .

روى أبو داود والحاكم والبزار عن عثمان رضى الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال « استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل » .

ثم بين سبب نهييه عن الصلاة عليهم فقال :

( إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ) أى لأنهم كفروا وماتوا وهم خارجون من حظيرة الإسلام مفارقون أمر الله ونهييه .

روى أحمد والبخارى والترمذى وغيرهم عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : لما توفي عبد الله بن أبى : دعى رسول الله للصلاة عليه فقام عليه فلما وقف قلت : أتصلى على عدو الله . عبد الله بن أبى القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ؟ أعدد أيامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتسم حتى إذا أكرت قال : « يا عمر أخرج عني » إني قد خيرت : قد قيل لى « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم - فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها » ثم صلى عليه ومشى معه حتى قام على قبره إلى أن فرغ منه . فعجبت لى ولجأ لى على رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ورسوله أعلم ، فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره » فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق بعده حتى قبضه الله عز وجل .

وقد حكم كثير من العلماء كالقاضى أبى بكر الباقلانى وإمام الحرمين والغزالى وغيرهم بعدم صحة هذا الحديث لمخالفته للآية من وجوه :

(١) جعل الصلاة على ابن أبى سببا لنزول الآية ، وسياق القرآن صريح فى أنها

نزلت فى سفر فزوة تبوك سنة ثمان ، وابن أبى مات فى السنة التى بعدها .

(٢) قول عمر للنبي صلى الله عليه وسلم : وقد نهاك ربك أن تصلى عليه - يدل

على أن النهى عن هذه الصلاة سابق لموت ابن أبى - وقوله بعده - فصلى عليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم فأُنزل الله تعالى (ولاتصلّ على أحد منهم) الآية -  
صريح في أنه نزل بعد موته والصلاة عليه .

(٣) قوله إنه صلى الله عليه وسلم قال : إن الله خيرهم في الاستغفار لهم وعدمه -  
إنما يظهر التخيير لو كانت الآية كالحديث ولم يكن فيها التصريح بأنه لن يغفر الله لهم  
بسبب كفرهم ، فأو فيها للتسوية لا للتخيير .

وهناك روايات أخرى في الصلاة على ابن أبي من طريق ابن عمر ومن  
طريق جابر .

وإنما ذكرنا هذا الحديث مع ما علمت من رأى أئمة الحديث فيه وحكمهم بأنه  
لا يقبل لما ذكروا من الأسباب - لأنه قلما يخلو تفسير من ذكره ، وقل أن تجد من  
يشير إلى شيء مما يدل على ضعفه واضطرابه لخالفته لظاهر الآية ، فرأينا أن نجعلك  
على بينة من أمره إذا أنت قرأته .

ثم أكد ما تقدم من النهي عن الاغترار بالأموال والأولاد ؛ لأن الأمر جد  
يحتاج إلى التوكيد ؛ إذ هما أعظم الأشياء جذبا للقلوب وجلبا للخواطر للاشتغال بالدنيا ،  
فيجب التحذير منهما مرة بعد أخرى فقال :

( ولاتعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وترحق  
أنفسهم وهم كافرون ) قد جاء مثل هذا النص فيما سبق إلا أن زيادة ( لا ) في الآية  
السابقة للنهي عن الإعجاب بكل من الأموال والأولاد على حدته ، وهو شامل لمن  
كانت له إحدى المزيتين أو كلاهما ، والنهي في هذه الآية عن الإعجاب بهم مجتمعين .  
وهذا أدعى إلى الإعجاب بهما .

وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ  
أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَسْكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ  
يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنِ

الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَّتِكَ لَهُمُ  
الْخَيْرَاتُ وَأَوْلِيَّتِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ  
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩).

### شرح المفردات

الطول (بالفتح) : الغنى والثروة ، وقد يراد به الفضل والمنة ، وذرنا : أى دعنا  
واتركنا ، والحوالف : واحدها خالفة ومثله خالف ، وهو من لاخير فيه ولاغناء عنده ،  
والطبع على القلوب : الختم عليها وعدم قبولها لشيء جديد .

### المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن المنافقين عملوا الحيل والتمسوا المعاذير للتخلف عن رسول  
الله صلى الله عليه وسلم وللقعود عن الغزو - قفى على ذلك بأن أبان أنه إذا أنزلت  
سورة فيها أمر بالإيمان والجهاد مع الرسول استأذن أولو الثروة والقدرة منهم فى التخلف  
عن الغزو وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : دعنا نكن مع الضعفاء والزمنى  
العاجزين عن القتال .

### الإيضاح

( وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنتك أولو الطول  
منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين ) أى إنه كلما أنزلت سورة تدعو المنافقين ببعض  
آياتها إلى الإيمان بالله والجهاد مع رسوله صلى الله عليه وسلم - استأذنتك أولو المقدره  
على الجهاد المفروض عليهم بأموالهم وأنفسهم - فى التخلف عن الجهاد وقالوا : دعنا  
نكن مع القاعدين فى بيوتهم من الضعفاء والزمنى العاجزين عن القتال والصبيان  
والنساء غير المحاطين به .

ونحو الآية قوله : « وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا أُتِرَتْ سُورَةٌ ؟ فَإِذَا أُتِرَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » .

وفي هذا تصريح بجهنم ورضاهم لأنفسهم بالمذلة والهوان .

( رضوا بأن يكونوا مع الخوالم ) أى رضوا لأنفسهم بأن يكونوا مع الخوالم

من النساء اللواتي ليس عليهن فرض الجهاد ، وهذا منتهى الجبن وتعمافه النفس الكريمة التي لا ترضى بالمذلة .

ثم بين العلة في قبولهم هذا الذل فقال :

( وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ) أى إن الله قد ختم على قلوبهم فلا تقبل

جديدا من العلم والموعظة غير ما استقر فيها واستحوذ عليها وصار وصفا لازما لها ، لأن النفاق قد أثر فيها على حسب سنة الله في الارتباط بين العقائد والأعمال ، فهم لا يفهمون ما أمروا به فهم تدبر واعتبار فيعملوا به .

( لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ) أى ولكن

الرسول والذين آمنوا به وكانوا معه في كل المهام الدينية لا ينفارقونه - جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وقاموا بالواجب خير قيام عملا بداعى الإيمان وأمر الله في القرآن .

( وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون ) أى وأولئك المجاهدون في سبيل

الله لهم الخيرات التي هي ثمرات الإيمان والجهاد من شرف النصر ومحو كلمة الكفر وإعلاء كلمة الله وإقامة الحق والعدل والتمتع بالمغانم والسيادة في الأرض ، دون المنافقين الجبناء الذين ألقوا الذلة والهوان ولم يكونوا أهلا للقيام بهذه الأعباء ، وأولئك هم الفائزون بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة دون المنافقين الذين حرموا منهما بنفاقهم بما له من الأثر في أخلاقهم وأعمالهم .

( أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ) تقدم

شرح هذا في آيات سابقة .

وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ، وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) .

### شرح المفردات

المعذَّر : من عذَّر في الأمر إذا قصر فيه وتوانى ولم يجتهد وهو يومئذ أن له عذرا فيما  
يفعل ولا عذر له ، وقد يكون أصله المعتذرون من اعتذرت ، والمعتذر إما صادق أو كاذب ،  
والأعراب : هم سكان البدو ، وكذبوا الله ورسوله : أى أظهروا الإيثار بهما كذبا ،  
يقال : كذبتة نفسه إذا حدثته بالأمانى والأوهام التي لا يبلغها ، وكذبتة عينه إذا أرتته  
بما لا حقيقة له .

### المعنى الجملى

بعد أن بين حال منافقى الحضرة فى المدينة - أردف ذلك بذكر حال الأعراب  
من البدو الذين طلبوا الإذن بالتخلف والذين تخلفوا بغير إذن .

### الإيضاح

( وجاء المعذَّرون من الأعراب ليؤذن لهم ) أى وجاء الذين يطلبون من النبى  
صلى الله عليه وسلم أن يأذن لهم فى التخلف عن الخروج إلى تبوك امثالاً للنفير العام  
من أولى التبعير .

قال الضحاك : هم رهط عامر بن الطفيل جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
فقالوا يا نبى الله : إنا إن غزونا معك أغارت طيىء على نساءنا وأولادنا وأنعامنا ،  
فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنبأنى الله من أخباركم وسيغنى الله عنكم .  
واختلفت الروايات بين قائل بصدقهم فى الاعتذار ، وقائل بكذبهم فيه ،  
وظاهر كلام ابن عباس أنهم صادقون فى اعتذارهم ، وعليه يكون المراد بالذين كذبوا  
الله ورسوله جماعة غيرهم من المنافقين .

( وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ) أى وقعد عن القتال وعن المجيء للاعتذار الذين أظهروا الإيمان بهما كذبا وإيهاما على غير اعتقاد صادق ، قال أبو عمرو بن العلاء : كان كلا الفريقين مسيئا ، قوم تكلفوا عذرا بالباطل وهم الذين عناهم الله بقوله : ( وجاء المذرون ) وقوم تخلفوا من غير عذر فقعدها جرأة على الله تعالى ، فأوعد المكذبين وبعض المعتذرين بقوله :

( سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ) أى سيصيب الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين والكاذبين من المعتذرين الذين فى قلوبهم مرض - عذاب أليم فى الدنيا والآخرة .

لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّأْتُمْ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتُمْ مَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر المعتذرين والذين كذبوا الله ورسوله ، وذكر وعيدهم على سوء صنيعهم - قفى على ذلك بذكر أصناف ثلاثة أَعذارها مقبولة ، ثم أردف هذا بذكر شر الأعدار وهو استئذان الأغنياء .

## الإيضاح

( ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ) أى إن التكليف بالغزو ساقط عن أصناف ثلاثة :

( ١ ) الضعفاء وهم من لا قوة لهم فى أبدانهم تمكنهم من الجهاد كالشيخ والعجزة والنساء والصبيان وذوى العاهات التى لا تزول كالكساح والعمى والعرج .  
( ٢ ) المرضى وهم من عرضت لهم أمراض لا يتمكنون معها من الجهاد ، وعذرهم ينتهى إذا شفوا منها .

( ٣ ) الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون منه على أنفسهم إذا ما خرجوا ، ولا ما يكفى عيالهم .

وقد كان المؤمنون يجهزون أنفسهم للقتال ، فالفقير ينفق على نفسه ، والغنى ينفق على نفسه وعلى غيره بقدر سعته كما فعلوا فى غزوة تبوك .

والخلاصة — إن هذه الأصناف الثلاثة لا حرج عليهم : أى لا ضيق عليهم ولا إثم فى قعودهم عن الجهاد الواجب على شرط أن ينصحوا الله ورسوله : أى يخلصوا لله فى الإيمان وللرسول فى الطاعة بعمل كل ما فيه مصلحة للأمة الإسلامية ولا سيما المجاهدين منها من كتمان السر والحث على البر ومقاومة الخائنين فى السر والجهر .

روى مسلم عن تميم الدارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الذين النصيحة — قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولسوله ولأئمة المساكين وعامتهم » .

وروى البخارى ومسلم عن جابر قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم .

( ما على الحسنين من سبيل ) السبيل : الطريق ، أى ليس لأحد أدنى طريق يسلكها لمؤاخذتهم ، فكل السبل مسدودة دون الوصول إليهم .

وقد جاء هذا الأسلوب كثيرا فى الكتاب الكريم ، وهو عام فى كل من

أحسن عملا من أعمال البر والتقوى كما قال تعالى : « بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ » .

وقد تفضل الشارع الحكيم فجازى المحسن بأضعاف إحسانه ولم يؤاخذ المسيء إلا بقدر إساءته .

والخلاصة — إن كل ناصح لله ورسوله فهو محسن ، ولا سبيل إلى مؤاخذة المحسن وإيقاعه في الحرج .

ثم قفى ذلك بذكر الصفح عنهم والتجاوز عن سيئاتهم فقال :  
( والله غفور رحيم ) أى وهو سبحانه كثير المغفرة واسع الرحمة يستر على المقصرين ضعفهم فى أداء الواجبات ما داموا مخلصين النصح لله ورسوله ، ويدخلهم فى زمرة الصالحين من عباده .

أما المنافقون المسيئون فلا يغفر لهم ولا يرحمهم إلا إذا تابوا وأقلموا عن النفاق الذى كان سببا فى ارتكاب هذه الآثام .

( ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ) يقال حملة على البعير أو غيره أركبه إياه أو أعطاه إياه ليركبه ، وكأن الطالب لظفر يركبه يقول لمن يطلب منه احملى .

أى لا حرج على من ذكروا أولا ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم على الرواحل فيخرجوا معك ، فلم تجد ما تحملهم عليه ، وهؤلاء وإن دخلوا فى عموم الذين لا يجدون ما ينفقون للجهاد لفقدهم الرواحل — قد خصوا بالذكر اعتناء بشأنهم وجعلهم كأنهم قسم مستقل .

( تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون ) أى انصرفوا من مجلسك وهم يبكون بكاء شديدا يصحبه حزن عميق ، فكانت أعينهم تمتلئ دموعا يتدفق من جوانبها حزنا وأسفا على أنهم لا يجدون ما ينفقون ولا ما يركبون فى خروجهم معك للجهاد فى سبيل الله وابتغاء مرضاته .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: «أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن ينبعثوا غازين ، نجأت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مُغفَلِ المزني فقالوا يا رسول الله احملنا فقال : ( والله لا أجد ما أحكم عليه ) فأنزل الله ( ولاعلى الذين إذا ما أتوك لتحملهم ) الآية ، وكانوا يسمون البكائين .

وفي رواية أنهم ما سألوه إلا الحملان على البغال ، وفي رواية أنهم سألوه الزاد والماء ، ولا مانع من وقوع كل هذا في هذه الغزوة الكبيرة ، ولكن الذين في الآية هم طلاب الرواحل .

وعدم وجود ما يحملون عليه يدخل فيه مراكب النقل البرية والبحرية والهوائية في هذا العصر ، ويتحقق العذر بفقد ما يحتاج إليه منها في كل سفر على حسبه ، ويفقد العذر بوجوده .

ولما بين من لاسبيل عليهم في تلك الحال - ذكر من عليهم السبيل فقال : ( إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ) أى إنما الطريق الموصل للمؤاخذة والمعاقبة بالحق على من يطلبون الإذن في القعود عن الجهاد والتخلف عن الغزو وهم أغنياء يستطيعون إعداد العدة من زاد وراحلة ونحو ذلك .

ثم ذكر السبب في استحقاقهم المؤاخذة فقال :

( رضوا بأن يكونوا مع الخوالم ) أى رضوا لأنفسهم بأن يكونوا مع الخوالم والخالفين من النساء والأطفال والمعذرين من المفسدين .

( وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ) أى وأحاطت بهم خطاياهم وذنوبهم على حسب سنن الله في أمثالهم ، فهم لا يعلمون حقيقة أمرهم ولا سوء عاقبتهم ، وما هو سبب ذلك من أعمالهم ، فهم قد رضوا بالمهانة في الدنيا بانتظامهم في سلك النساء والأطفال - إلى أن تخلف الأفراد عن القتال الذى تسعى إليه الشعوب والأمم يعد من مظاهر الخزى والعار ، وقد جعله الدين من أقوى آيات الكفر والنفاق .

وأما سوء عاقبتهم فيكفى فيه فضيحتهم في هذه السورة كفاء إجحامهم عن الجهاد في سبيله ، وما أعدده لهم من العذاب العظيم والخزى والنكال في نار الجحيم .  
 اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا لدى هول الموقف والحساب ،  
 واجعلنا ممن أخلصوا العمل في السر والنجوى ، واحشرنا في زمرة الذين أنعم الله عليهم  
 من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله  
 رب العالمين .

وقد كان الفراغ من مسودة هذا الجزء في الحادى عشر من ذى القعدة سنة اثنتين  
 وستين وثلثمائة وألف من الهجرة بمدينة حلوان من أرباض القاهرة ، وله الحمد  
 أولاً وآخراً .